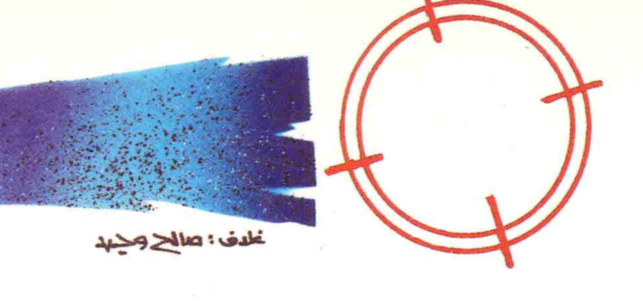


الأعمال الكاملة
صالح مرسي
السير فوق خيوط العنكبوت
١٨



هذا الكتاب

يبدو كاتبنا الكبير صالح مرسى فى هذا الكتاب الجديد، غريباً حتى على نفسه.. وإذا كان قد بدأ حياته الأدبية بقصصه الشهيرة عن البحر ـ زقاق السيد البلطى، البحار مندى، دموع فى عيون وقحة ـ تلك القصص والروايات التى جعلت منه بحق رائداً لأدب البحر فى الأدب العربى الحديث.. وإذا كان قد قدم بعد ذلك وجهاً جديداً للرواية، يوم أضاف إلى الأدب العربى تلك القصص الرائعة التى ذاعت واشتهرت عن التجسس ـ الحفار، رأفت الهجان، سامية فهمى، دموع فى عيون وقحة، نساء فى قطار الجاسوسية ـ والتى جعلت منه ـ أيضاً ـ رائداً لأدب التجسس.. فإنه فى هذا الكتاب، يسفر عن سمة جديدة من سماته، وهى سمة الباحث والمدقق الذى يأبى إلاّ أن يقوم بواجبه حيال وطنه، فيضيف تلك الدراسة الممتعة التى يقدمها بأسلوبه القصصى الشيق، عن نشأة الجاسوسية وتطورها منذ أن كان الإنسان الأول، وحتى آخر قصص التجسس التى أثارت الناس فى كل مكان، متحرياً الدقة وحدود ما توصل إليه من معرفة فى كل كلمة، مما يجعلنا نشعر، ونحن نقرأ الكتاب، أنه بالفعل يسير فوق خيوط كخيوط العنكبوت !!

إننا ونحن نقدم هذا الكتاب للأديب الكبير صالح مرسى، نعرف ـ باليقين ـ أننا نقدم إضافة جديدة للمكتبة العربية، إضافة يحتاج إليها كل من يريد أن يعرف ولو طرفاً من الحقيقة عن هذا العالم المجهول !







السير فوق خيوط العنكبوت

صالح مرسي

السير فوق خيوط العنكبوت



القاهرة



بيروت

الطبعة الثانية

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

مطابع ستار برس للطباعة والنشر

٤٠ش المحولات الكهربا ئية محطة المطبعة - الهرم ت ٨٦٤١٥١

رقم الايداع : ١٩٩٣/١١٤٨٧

I-S-B-N:977-5193-38-9



مكتبة مدبولى الصغير

٤٥ ش البطل أحمد عبد العزيز ت: ٣٤٧٧٤١٠

ميدان سفنكس خلف سينما سفنكس ت: ٣٤٦٣٥٣٥

المقدمة: قبل أن تقرأ

يبدو لي أنه من الضروري، قبل أن نبدأ الحديث... أن أنبه الى أن كل ما سوف يرد في هذا الكتاب، ليس سوى جهد شخصى متواضع، أبذله في هذا الميدان ليقيني بأن القارىء العربي عامة، والمصري بصفة خاصة، في حاجة ماسة إلى مثل هذا الحديث، بعد أن تكاثر الكلام في السنوات الأخيرة عن التجسس والجواسيس، وبعد أن اختلطت المفاهيم في أذهان البعض نتيجة لالتقاط الألفاظ دون المعاني... وهو حصيلة وضع أساسها أساتذة أعترف بامتنان بما قدموه لي من نصائح وتوجيهات، ثم... ثم كانت هناك مرحلة التحصيل التي كان ولابد منها، كي أفهم وأتعلم وأعرف، ويصبح في مقدوري أن أكتب عن بعض العمليات التي قام بها رجال بذلوا شبابهم كله في هذا الوطن، دون أن يفكر أحدهم في الإعلان عن نفسه، أو حتى الرد على سهام توجه اليهم من البعض حقداً أو جهلاً... وكانت تلك

القصص التي كرمني القارىء ـ في كل أنحاء العالم العربي من الخليج الى المحيط، وبعض أجزاء من العالم ـ بالإقبال عليها... فليس هذا مني سوى رد لبعض الجميل، أتحمل مسئوليته كاملة وحدي!!

صالح مرسي

الراشق بالجواسيس

كان هذا في شهر أغسطس ١٩٧٦.

كنت في رحلتي الثانية - في ذلك العام - الى العاصمة البريطانية، أحاول أن أكتب سيناريو فيلم «الصعود الى الهاوية»، للمرة السابعة أو الثامنة، بعيداً عن كل شيء، بعيداً حتى عن نفسي... كنت أشعر برغبة ملحة في الوحدة، في البعد عن الناس، لا أحدث أحداً ولايحدثني أحد... كان إحساسي بالعجز أمام «الموضوع» يتعاظم كل يوم... فبعد جولتي الأولى في مارس من نفس العام - أي قبل أربعة أشهر فقط من رحلتي هذه - مع المخرج الكبير كمال الشيخ، والتي زرنا فيها باريس وجنيف ولندن، لمعاينة الأماكن التي تصلح لتصوير الفيلم، أحسست أني أسبح في بحر لا أعرف شيئا عن أمواجه وتيارات المياه فيه، عن مده وجذره، عن شطآنه أو موانيه... كنت كلما انتهيت من كتابة السيناريو مرة، أحسست أن ثمة شيئاً ناقصاً، شيئاً يمثل

العصب بالنسبة لبناء القصة، أو... فلنقل - بمعنى أدق - يمثل الروح، روح القضية ونطفتها الأولى... فأعاود الكتابة من جديد، وقد أتقدم خطوة، وربما خطوتين، لكن إحساسي بالبعد عن «اللب» كان يزداد، فلقد كانت حصيلتي - في ذلك الوقت - من هذا العلم الواسع، بالغة الضآلة والضحالة في نفس الوقت!

وفي يوم من أيام أغسطس هذا، وفي زيارتي الثانية تلك للعاصمة البريطانية، وفي تقاطع شارع أكسفورد مع شارع ريجنت، التقيت بالصديق مصطفي نبيل - رئيس تحرير مجلة الهلال الآن - وكان وقتها يقيم في بريطانيا منذ عام وبعض العام لظروف عائلية... في هذا اللقاء، كان لابد من الحديث عن الفيلم، عن موضوعه، عن الجواسيس والتجسس ورجال المخابرات، ولقد كان الأمر بالنسبة لكلينا، غامضاً من جوانب كثيرة... وما إن شكوت لمصطفي مما أعانى منه، حتى سألنى: لماذا لا أذهب الى احدى المكتبات الشهيرة، وأبحث فيها عما قد يُفيدنى من كتب في هذا الحقل؟!

لم تكن الفكرة بعيدة عن تفكيرى بطبيعة الحال، لكن المشكلة هى أن العين كانت بصيرة، واليد بالغة القصر... إن شراء كتاب أو مجموعة كتب، تكلفنى بالقطع ما لا قبل لى به، غير أن مصطفي هتف في مداعبا:

«كتاب في اليد، خير من جهل في العقل!»

وضحكنا معاً، وقادنى الى إحدى المكتبات في شارع ريجنت

على ما أذكر... وما أن سألت عن قسم التجسس في المكتبة، حتى قادتني الموظفة المختصة الى قسم كامل، ووقفت مشدوهاً!

وجدت نفسي في قسم يصلح لأن يكون مكتبة كاملة في القاهرة، وجدت نفسي أمام مئات الكتب التي تبحث في هذا الميدان وتغطي كل جوانبه، وجدت نفسي أمام كتب تتناول تاريخ التجسس وقصص الجواسيس العظام، من ماتا هاري وحتى أسطورة التجسس في العصر الحديث «دكتور ريتشارد سورج»، كتب تتحدث عن التجسس في زمن الحرب، والتجسس في زمن السلم، وكتب تتحدث عن المدارس المختلفة لهذا النوع من النشاط الإنساني وما تتميز به كل مدرسة، وأخرى تتحدث عن تدريب الجواسيس... و... و... وجدت نفسي أمام بحر زاخر بكل ماخطر ببالي، وما لم يخطر ببالي... وهكذا بدأت الرحلة، وبقدر ما سمحت به ميزانيتي، اقتنيت بضعة كتب، أذكر الآن، وبعد نيف وخمسة عشر عاماً، إنها لم تكن تزيد على الخمسة!

ولقد تعلمت من هذه الواقعة أشياء كثيرة، غير أن أثمن ما تعلمته هو أن المعرفة التي تأتي الإنسان عن طريق التحصيل الذاتي، أثمن ألف مرة من تلك التي تأتيه عن طريق التلقين، أي سماعي... ذلك أن التلقين يأتيك عبر الغير مغموساً في وجهة نظره هو... أما التحصيل الذاتي، فهو الذي يدفعك الى التفكير والمقارنة وإعمال العقل فيما لم يعمل فيه العقل من قبل!

... ...

... ...

ثم كانت واقعتان!

الواقعة الأولى: عندما أفرجت الحكومة المصرية عن شبكة التجسس الإسرائيلية التى كان يتزعمها الإسرائيلى صبحى مصراتى، وابنته فائقة مصراتى... فلقد اعتبر البعض أن هذا التصرف ينم عن ضعف الحكومة، وكتبت بعض الصحف المصرية - لست أبغى أن أطلق عليها وصف المعارضة، فهذه وتلك في النهاية مصرية! - مقالات وتعليقات بدت لى، فوق أنها مستفزة، تفتقر إلى الإلمام بأبسط قواعد هذا العلم... والغريب أن أحداً لم يتصد كى يشرح الأمر للناس، وكان بيان الحكومة مقتضبا... وكان ما كتب اعتراضا على تسلم الجواسيس وإعادتهم الى اسرائيل، ثم ما كتب عن إحتفال اسرائيل بعودة جواسيسها، ينم عن «عدم فهم» لطبائع الأمور... ولقد حاولت من جانبى، وكتبت مقالاً - نشر للأسف متأخراً بضعة أسابيع - أشرح فيه الأمر، لكن صوتى ضاع وسط ذلك الصخب الذى اصطنعه المعارضون والصارخون في برية الصحافة المصرية!

أما الواقعة الثانية: فكانت أثناء عشاء ضم مجموعة من الأصدقاء، ودار الحديث حول المتغيرات التى تحدث في الكرة الأرضية... عن الاتحاد السوفيتى الذى إنهار، والمعسكر الشرقى الذى تفتت، والولايات المتحدة التى تتزعم العالم بلا منازع... و... وكان أن هتف هاتف من الحاضرين: أن عصر التجسس قد انتهى!

ودهشت!

كانت الصيحة حارة، أطلقها قائلها بثقة المطلع على مجريات الأمور... ولقد كان من الممكن أن أرد، وأشرح، وأحلل... وبقدر ما أملك من معلومات، كان من الممكن أن أدلي بدلوي، غير أني وجدت نفسي أمام عاصفة من المناقشات والمحاورات لم يكن لي فيها مكان، فآثرت الصمت!

فهل انتهى عصر التجسس فعلا؟!

هذا السؤال لم يردده الأصدقاء في ذلك العشاء فقط، بل هو يتردد في الصحف والمجلات... وبالفعل، ومنذ انهيار الاتحاد السوفيتي، وتفكك تلك الدولة العملاقة، وابتعاد شبح الحرب الكونية، والبعض يتساءل: ما فائدة التجسس إن كان السلام قد حل؟!

ولم يقتصر الأمر على هذا... بل إن بعض الكتّاب، أو بعض الصحف إن شئنا الدقة، تنبأوا بتسريح رجال المخابرات السوفيتية، دون أن يخطر ببالهم، ودون أن يتساءلوا ـ ولا تدرى لماذا!! ـ لماذا لاتسرح المخابرات المركزية الامريكية رجالها في المقابل؟!

ولقد كان من الغريب حقاً، أن تطيّر وكالات الأنباء العالمية، والمشهود لها بالدقة، أخباراً عن بعض رجال المخابرات السوفيتية، الذين أعلنوا عن عزمهم على الكشف عن بعض العمليات التى قام بها جهاز الـ «كى. جى. بى» في ظل النظام

الشيوعي، وإصدار كتب على غرار تلك التى تصدر بين الحين والحين في الغرب!

ولعل أشهر هذه الكتب التى صدرت في السنوات الأخيرة، هما كتابا «صائد الجواسيس» لرجل المخابرات البريطاني «بيتر رايت»، وكتاب «القناع» للكاتب الأمريكى «بوب وود وارد»... ولم يكن صدور هذين الكتابين هو فاتحة المعركة التى احتدمت في الثمانينات من هذا القرن بين الشرق والغرب، فلقد جاء حين من الزمان، كان من الصعب أن يمر شهر دون أن نقرأ خبراً أو تحقيقاً عن التجسس والجواسيس... ولعل أشهر هذه القصص هى هروب «رئيس هيئة الأمن القومى» في ألمانيا الغربية - عام ١٩٨٥ - وهو الهر «هانز جواخيم تيدكه» الى الشرق، ولقد كان الأمر ضربة قاصمة حقاً للمخابرات في ألمانيا الغربية، فالرجل المسئول عن مواجهة الجواسيس وضبطهم، اتضح أنه شخصياً جاسوس... وما أن بدأت صحف الغرب تتحدث عن هر تيدكه وسكرتيرته وعلاقاته العائلية وإدمانه الخمر وما الى ذلك، حتى جاء الرد من الغرب، عندما أعلنت بريطانيا أن القنصل السوفيتى فيها، والمسئول الأول عن نشاط الـ «كى. جى. بى» في المملكة المتحدة، قد طلب حق اللجوء السياسى اليها، وإنه قد مُنح هذا الحق!!

هكذا احتدم مسلسل التجسس في العالم، وهكذا بدا التراشق بالجواسيس بين هؤلاء واولئك... ولذلك، فعندما صدر كتاب «صائد الجواسيس»، ومن بعده كتاب «القناع» - وكان هذا في

عام ١٩٨٧ ـ كانت الأمور ملتهبة التهابا فاق كل تصور، وكانت التربة صالحة والجو مهيأ لمزيد من القصص ومزيد من الكتب ومزيد من الاثارة... وتعود الناس أن يقرأوا في كل موسم ـ أنا أعنى الكلمة ـ عن كتاب جديد يتحدث عن عملية أو قصة من عمليات التجسس أو قصصه.

حتى جاء عام ١٩٩٠، وقبل الغزو العراقى للكويت، وبالتحديد في الخريف من هذا العام، كانت الضجة حول آخر كتاب قد بدأت في الخفوت... وكان ثمة أصوات هنا وهناك تبشر بمولود جديد، وراحت الأصوات ترتفع قليلا قليلا، وفي حساب بالغ الدقة، ثم بدأت وسائل الاعلام الغربية تعزف نغم افتتاحية جديدة لكتاب جديد كان المفروض أن تصاحبه زفة اعلامية هائلة، هذا هو كتاب «الخديعة» أو «الطريق الى الخداع» أو «عن طريق الخداع» فاسم الكتاب يحتمل كل هذه الترجمات، وهو كتاب وضعه العميل الاسرائيلى السيد فيكتور استروفسكى، والذى يتحدث فيه عن بعض العمليات القذرة التى قام بها جهاز الموساد الاسرائيلى، والتى كان منها، بل ربما أهمها، اغتيال عالم الذرة المصرى، الذى كان يعمل في العراق وقتها: دكتور يحيى المشد!!

كان المفروض ـ هكذا قالت كل المقدمات التي اشتركت فيها حتى الحكومة الاسرائيلية ـ أن تثار حول هذا الكتاب ضجة اعلامية هائلة، ترفع توزيعه الى عشرات الألوف من النسخ، وتثرى السيد استروفسكى، لولا أن داهم الجميع الغزو العراقى للكويت... واذا الدنيا تنقلب رأساً على عقب، واذا أمواج الحدث

الجـديد، تطغى على كل شيء، ويجـرف طوفـان حـرب الخليج صفحات الصحف ووكالات الأنباء جميعا وقتئذ - في نفس الوقت - هذا الكتاب التعس!

إن قصة هذا الكتاب تبدو مثيرة بشكل خاص، خاصة، اذا ماعرف القارىء، ما الذي يفعله السيد استروفسكي الآن - خلال عام ١٩٩١ -.... لكن الشيء الغريب، أن وسائل الاعلام كانت تروج لهذه الكتب، وكأنها تصدر عفو خاطر أصحابها أو مزاجهم الشخصي ضد رغبة الأجهزة التى تكشف بعضاً من أسرارها... حقاً أن هناك هامشاً كبيراً من الحرية - بالنسبة لمثل هذه الأمور - في العالم الغربي، هامش ليس موجوداً فيما نطلق عليه الدول النامية أو العالم الثالث، لكن الذي يجب أن نعرفه، وأن نتنبه إليه، أن هذا الهامش، مهما اتسعت مساحته، له حدود لايتعداها، ولايستطيع أن يتعداها مهما بلغ شأن الكاتب أو مكانته أو ذيوع اسمه... ومهما كان الأمر، فالحرية متاحة حقاً إلا فيما يمس أمن الدولة، وليس من المنطقى - بداهة - أن تصدر هذه الكتب، مهما قيل وروج عنها وعن أصحابها، دون موافقة، بل ربما دون تخطيط مع الجهاز الذى تتحدث عنه... ذلك أنها لاتصدر اعتباطا، ولابد وأن يكون من وراء إصدارها هدف محدد يبغي هذا الجهاز أو ذاك، تحقيقه على أكمل صورة!!

... ...

... ...

وعلى كل، وبدلا من أن نسبق الحديث ونكثر من الروافد فلسوف يحين وقت الحديث عن هذه الكتب بالتفصيل، علينا أن نعود الى السؤال المطروح هذه الأيام، وهو: هل انتهى عصر التجسس؟!

غير أننا، قبل أن نجيب على هذا السؤال، نجد أنفسنا أمام سؤال آخر سوف يساعدنا دون شك، على فهم الأمور... هذا السؤال هو: متى بدأ التجسس على وجه الأرض؟!

هناك نظرية تقول: إن التجسس بدأ مع بداية الانسان على سطح الكرة الأرضية... ذلك أن الانسان الأول، كان اذا ما أراد اصطياد فريسة يتبلغ بها هو وأسرته، كان عليه أولاً أن يبحث عن هذه الفريسة، حتى اذا ما وجدها، أصبح عليه - بطبيعة الحال - أن يقارن فيما بين قوتها وقوته، وأن يتوارى عنها حتى يستفيد من عنصر المفاجأة وإلا فرت الفريسة منه، أو احتمت بمن حولها من أفراد القطيع... ولهذا، فلقد كان يختبىء، ويرصد القطيع من بعيد، وأن ينتقى من هذا القطيع فريسة يكون في مقدوره اصطيادها... ثم يصبح عليه أن ينتظر حتى تحين الفرصة المناسبة لاصطيادها، فينقض عليها في الوقت المناسب، ويقتنصها!

أليس هذا تجسساً!!

كذلك الأمر بالنسبة للتجسس المضاد، والذي تعودنا أن نطلق عليه اسم «مقاومة التجسس»... فإن الإنسان الأول، كان إذا

ماإستشعر الخطر من الطبيعة، أو من عدو يبغى افتراسه، يبحث عما يحميه من هذه أو ذاك، فإذا ما استشعر خطراً من أسد أو نمر، تسلق شجرة، أو اختبأ في كهف، أو ـ مع تطوره ـ نصب له فخاً يسقط فيه ويتقى بذلك اذاه.

وتمضى الحياة بالإنسان فوق سطح الأرض، وتتكون المجتمعات، وتُعرف الحروب، ويتطور التجسس تبعاً لتطور كل شيء، ولعل مافعله الفرعون «سقنن رع» عندما بدأ مقاومة الهكسوس، يعتبر صورة فذة لما يمكن أن نطلق عليه هذه الأيام. عمليات الخدمة السرية!

يقول العلامة المصرى الراحل دكتور سليم حسن، في الجزء الرابع من موسوعته «مصر القديمة» وهو الجزء الذى يتحدث عن «الهكسوس وتأسيس الأمبراطورية»، عن الفرعون «سقنن رع» ـ تاعا الثانى ـ إنه كان من أعظم ملوك مصر وأمجدهم في تاريخ البلاد... وإنه مات وهو في الثلاثين من عمره في ساحة الوغى وهو يحارب الهكسوس بعد أن ترك ولدين هما «كامس» و«أحمس»... وكما يقول دكتور سليم حسن، أن السبب في تفوق الهكسوس وغزوهم مصر، إنهم كانوا يملكون بعض الأدوات التى لم يكن المصريون يملكون مثلها: مثل البرونز والخيل والعربات.

والثابت بالقطع، أن المصريين لم يكونوا يعرفون ـ حتى ذلك التاريخ «القرن السابع عشر قبل الميلاد» ـ الخيل... ولقد كان من السهل أن يصنعوا العربات الحربية، ولكن: كيف يصنعون الخيل؟!

هناك ورقة تعرف باسم ورقة «ساليبه» تحكى قصة الملك «أبو فيس» ملك الهكسوس مع «سقنن رع»، والذي تفتق ذهنه عن عمل غريب ومجيد، فلقد أرسل أربع مجموعات من رجاله الأشداء، إلى الوجه البحرى، الذى كان الهكسوس يتحكمون فيه، كل مجموعة مكونة من أربع رجال، وكانت مهمتهم هى إستجلاب أربع أزواج من الخيل والأفراس، وفي قول أن مجموعتين قد نجحتا بينما فشلت المجموعتان الأخريان، وكانت الخيول التي وصلت هى البذرة التي هجنت وولدت واستعملها ابنه أحمس في طرد الهكسوس من مصر كى يؤسس من بعدها الأسرة الثامنة عشرة!

وإذا كانت قصة إرسال مجموعات الرجال لاستجلاب الخيل، فى قصة «خدمة سرية» واضحة، بل ومتقدمة... فإن كلمة «التجسس» على وجه التحديد، وردت أول ماوردت في لوحة الملك كامس - ابن سقنن رع وشقيق أحمس الأكبر - وفي هذه اللوحة التاريخية، يتحدث الملك كامس عن حروبه ضد الهكسوس - وكان اسمهم بالنسبة للمصريين هو «العامو» - وما صنعه بهم... وفي جزء من هذه اللوحة يقول الملك كامس:

«... ... ... ولقد اقلعت منحدراً في النيل بوصفي محاربا لأهزم «العامو» بأمر «آمون» صادق النصيحة، وقد كان جيشى شجاعاً يسير أمامى كأنه عاصفة من نار، وكان جنود «المازوى» في مقدمة معاقلنا كى «يتجسسوا» على مواقع الستيو... ... ...»

كانت هذه هى المرةالأول التى ترد فيها كلمة «تجسس»

بمعناها الواضح والمحدد... فقبل هذا كانوا يطلقون على الجاسوس اسم «عين فرعون»!

ثم هناك نص آخر وردت فيه الكلمة، ليست صريحة فقط، وإنما موضحة وكأنها تضع - لأول مرة في التاريخ - أسس علم الجاسوسية، هذا النص هو الذى ورد في التوراه...

ففى سفر العدد، الاصحاح الثالث عشر، حيث كانت وصايا نبى الله موسى عليه السلام لجواسيسه من بنى إسرائيل، بمثابة أول مانيفستو يضع اللبنات الأول لهذا العلم، ذلك أن الاصحاح الثالث عشر، يبدأ بتوجيه من الله إلى نبيه:

«ثم كلم الله موسى قائلاً: أرسل رجالك «ليتجسسوا» أرض كنعان... ...» .

هكذا، بالتحديد جاءت الكلمة، بل إن الله سبحانه طلب من موسى أن يرسل رجلاً من كل سبط... وتعدد التواره، أسماء هؤلاء الرجال الذين وقع اختيار نبى الله عليهم، ثم، يعطيهم توجيهاته، فماذا قال؟!

«... ... ... فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان، وقال لهم اصعدوا من هناك إلى الجنوب، واطلعوا إلى الجبل، وانظروا الأرض ماهى، والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف، قليل أم كثير، وكيف هى الأرض التى هو ساكن فيها، أجيدة أم رديئة، وما هى المدن التى هو ساكن فيها، أمخيمات أم حصون... وكيف هى الأرض، أسمينه أم هزيلة، أفيها شجر أم لا، وتشددوا فخذوا

من ثمر الأرض، وأما الأيام، فكانت أيام باكورات العنب!»

ولست أدرى، ما الذى يمكن أن يضاف اليوم - بعد أكثر من ثلاثين قرنا من الزمان - من تعليمات إلى جاسوس أو كلت إليه مهمة التجسس على أرض الغير، ما الذى يمكن إضافته إلى هذا الذى طلبه نبى الله موسى من جواسيسه الذين أرسلهم إلى أرض كنعان؟!.

غير أن الأمر لم يقتصر على هذا في التوراة، بل تعداه إلى مايمكن أن نطلق عليه «الأمن القومى» أو «مقاومة التجسس» أو «التجسس المضاد»... فلقد ورد في نفس السفر - سفر العدد - في الاصحاح العاشر:

«... ... ... وقال موسى لحوباب بن رعوئيل المديانى حمى موسى، إننا راحلون إلى المكان الذى قال الرب أعطيكم إياه، إذهب معنا فنحسن إليك لأن الرب قد تكلم عن إسرائيل باحسان... فقال له - أى حوباب - لا أذهب، بل إلى أرضى وإلى عشيرتي أمضى، فقال - موسى - لاتتركنا لأنه بما أنك تعرف منازلنا في البرية، تكون لنا كعيون! ... ...»

وهذه الفقرة، تقول ببساطة، أن حوباب بن رعوئيل يعرف عنهم كل شىء، فإذا ماجاء الأعداء ووجدوه وسألوه، فقد يضطر إلى أن يخبرهم بكل شىء عن بني اسرائيل!

أليس هذا هو الأمن القومى في أبسط صوره وأجلى معانيه؟!

• • •

ثم...

هذه لمحة سريعة عن «التجسس» في العصور السحيقة... ولابد لنا من الانتقال منها، في لمحات خاطفة إلى العصور الوسيطة، ثم الحديثة، ثم إلى أيامنا هذه حيث يستجد كل يوم شيء جديد، قد يدحض ماذهبنا إليه، وقد يؤيده... لكن المرء لايملك إلا الاجتهاد.. وفي هذا السبيل، أجد نفسى كمن يسير فوق خيوط العنكبوت، في حرص مابعده حرص، فالخيوط جد واهية... غير أني ـ منذ البداية ـ أقول، أنى لا أعد بتقديم دراسة أنا لست مؤهلاً لها. فالدراسة تحتاج إلى منهج، وأنا لا أملك هذا المنهج، وليس في نيتى أن أضعه أو اتبعه إن وجد... كل ما أعد به هو خواطر كانت ـ ولاتزال ـ تعن لى بين الحين والحين، فليس أمامى طريق واضح أسلكه، وإنما هى دروب وسبل ومسالك سوف أخوض فيها عفو الخاطر، ولعل التوفيق يكون حليفي.

الجاسوس: رجل العصور القادمة

على مر العصور، ومع تقدم المجتمعات الإنسانية، وإنتقال الإنسان من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة في أواخر القرن التاسع عشر، كان دور الجاسوس يتعاظم يوماً بعد يوم.. وفي كتابات الصديق راجى عنايت عن المستقبل، وهى كتابات، قيمة وبالغة الأهمية استمرت حتى الآن لعشر سنوات دون توقف، وكانت حصيلتها عدداً من الكتب ، الهامة ، أخرها ذلك الكتاب الذى يحمل عنوان «أفيقوا يرحمكم الله»... يقول راجى عنايت: إن المجتمعات الإنسانية ـ الآن ـ تشهد انتقالاً من عصر إلى عصر، ومن حضارة إلى حضارة أخرى مختلفة... كذلك الانتقال الذى شهدته الإنسانية عندما انتقلت من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة... وإن كل مانشهده حولنا من تغييرات في البنية الدولية، ماهو إلا ارهاصات هذا العصر الجديد القادم،

والذى يطلق عليه المفكرون: «عصر المعلومات»، وهو عصر يحتاج منا إلى نوع جديد من التفكير، وأسلوب جديد في الاداء العقلي.

وإذا كان الاقتصاد في العصر الصناعى يقوم على السلعة المنتجة في المصنع، فإن العصر القادم، سوف تكون سلعته هى «المعلومة»... بمعنى، أن القيمة المادية للمعلومات، سوف تفوق القيمة المادية للسلعة... ذلك أن التقدم التكنولوجى فى الآلات، سوف يهبط بقيمة العمل اليدوى الذى ستقوم به الآلة بدلاً من الإنسان وبشكل أدق في نفس الوقت... فى حين، سيظل عقل الإنسان شامخاً وحده، سوف يصبح العمل الجديد، أساسه العقل ومادته العقل الذى سيحتفظ دون شك، بقدراته «الابتكارية» والابداعية، التى لا تستطيع أية آلة أن تقوم بها مهما بلغت درجات تقدمها!

وإذا كانت مادة الجاسوس ولب عمله هو الحصول علي المعلومات، فلسوف يصبح الجاسوس هو: رجل العصور القادمة!!

... ...

... ...

ولكن...

بدلاً من تعجل الولوج إلى المستقبل، علينا أن نلقي نظرة سريعة على الماضي... فليس هناك مستقبل بلا حاضر، كما إنه ليس هناك حاضر لا ماضي له!!..

ومن قلب التاريخ سوف نلتقط مثالاً واضحاً - وربما كان كافيا - على أهمية التجسس بالنسبة للدول والحكام والاباطرة، بل... والتاريخ أيضاً!!

يقول الدكتور ثروت عكاشة في كتاب القيم «اعصار من الشرق»، والذي قدم لنا فيه، منذ حوالى أربعين عاماً، قصة الفاتح المغولي الأشهر «جنكيز خان»، ذلك الفاتح الذي داهم الدنيا كاعصار لايبقى ولايذر... يقول إنه عندما أراد غزو الصين، وقفت أمامه عقبة كأداء، هى سور الصين العظيم - أحد عجائب الدنيا السبع - بأبراجه ومناعته... ولقد ظل جنكيز خان، بجيوشه الجرارة ومعداته وأسلحته، يحوم طويلاً حول هذا السور في محاولة لاقتحامه دون جدوى... حاصر بواباته ،وعسكر بطول أميال وأميال، والشهور بعد الشهور أمام السور ومن حوله، دون أن يستطيع التغلب على الجيش الرابض خلف السور، والذى كان، من خلفه ومن فوقه، يلقى عليهم بحممه فلا يملك سوى التراجع... ثم...

«... ... ... وأدرك - جنكيز خان - بما قدر له الادراك، قيمة ذلك الحاجز المنيع المقام من الصخر والآجر المتين القديم، فذهب يتحسس أبراجه الشاهقة الحاكمة على مساحة واسعة من

الفضاء، وأخذ يتجول مقارباً السور حتى يلامسه تارة، ويفارقه حتى يختفي عنه تارة أخرى... كان يتحسس قوة بواباته، ويتلمس صلابة حوائطه، فأدرك أنه لاقبل له باقتحام ذلك السور العظيم إلا من البوابات نفسها! ... ...»

ولا يملك الإنسان سوى الوقوف أمام هذه السطور مندهشاً، أليس ما فعله جنكيز خان، منذ مايقرب من عشرة قرون، عملية استطلاع، أو قل عملية تجسس من نوع ما؟!... وعلى كل، فماذا فعل جنكيز خان وقد وجد نفسه أمام هذا المانع الذى لا قبل له به؟!

«... ... ... نراه يبعث جواسيسه من التجار والفرسان الذين ادعوا الفرار من ظلمه، ورجاله الذين سبق لهم القتال داخل السور العظيم لمعاونة الامبراطور السابق ضد أسرة سونج، بعث جنكيز خان بكل أولئك فقبضوا على بعض الجنود وأخذوهم أسارى ليستدل منهم على مدى قوتهم وتسليحهم وأسرار سياستهم وطرق النفاذ من السور العظيم ... ...!!»

هذا مافعله جنكيز خان في العصور الوسطى، فاذا ماخطونا فوق سنوات الزمن خطوات، وانتقلنا من تلك العصور إلى العصر الحديث، فلسوف نجد أنفسنا امام مئات، وربما الآف القصص، وتلال من الكتب التى تبحث وتتقصى وتحكى ماحدث في هذا الميدان الشائك، ابان الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص... بل إن كتباً لاتزال تصدرحتى اليوم حول

التجسس والجواسيس خلال تلك الحرب الأخيرة، ولعل من أشهر الكتّاب الذين كتبوا عن التجسس وأرخوا له في تلك الفترة، هو الكاتب المجرى الأصل الأمريكى الجنسية «لاديسلاس فاراجو»، الذى أصدر عدداً من الكتب تعتبر حتى اليوم، من أهم المراجع، لا لأعمال الجاسوسية أثناء الحرب العالمية الثانية فقط، بل عن الجاسوسية بشكل عام.

والسيد فاراجو يرى أن الجواسيس، أو العملاء السريين، لم يؤثروا في مجرى الحروب فقط، بل أثروا، وبشكل مباشر، في مجرى التاريخ الإنسانى بشكل عام... إنه يقول في واحد من أهم كتبه، إن لم يكن أهمها على الأطلاق من وجهة نظر البعض، وهو كتاب «مباراة الثعالب»، الذى استمد مادته من ثمانيمائة ألف «٨٠٠,٠٠٠» وثيقة، هى وثائق المخابرات الألمانية التى عثر عليها بعد انتهاء الحرب، بما يشبه المعجزة.

«... ... ... ولقد كان لأجهزة الخدمة السرية أثر على التاريخ يفوق ما كان لها من أثر على المؤرخين، ذلك أن وراء كل حدث عظيم، ووراء رجال الدولة الذين صاغوا هذه الأحداث، يقف الجواسيس... ومع ذلك، فهم نادراً مايظهرون في السجلات العلمية التى تتغاضى عما بذلوه من جهد... ولعل السبب في ذلك يرجع إلى التعالى عليهم، أو لعل مرده يعود إلى تلك الحساسية نحوهم، فإن الدبلوماسيين ورجال السياسة والقادة العسكريين - الذين استفادوا فائدة كبرى من المساعدات التى قدمها لهم عملاؤهم السريون - دائما ما يتغاضون عن هؤلاء الرجال في

مذكراتهم ... ...!!»

ونحن قد نتفق مع السيد فاراجو أو نختلف معه فيما يختص ببعض ماجاء في قوله هذا ... ولكن، يبقى أن هذه شهادة رجل تمرس ودرس وأنفق سنوات في البحث والدراسة حتى أصبح واحداً من خبراء هذا الميدان المعدودين... غير أن كلماته هذه، تردنا إلى تلك القضية التى وقعت على أرضنا أثناء واحدة من أعنف معارك الحرب العالمية الثانية، وأعنى بها معركة العلمين!...

واذا كان البعض يذهبون، ومنهم صانعو ذلك المسلسل التسجيلى التاريخى الشديد الأهمية، والذى عرضه التليفزيون المصرى مرتين، وأعنى به مسلسل «العالم في حرب»... يذهبون - كما جاء في نص احدى حلقات المسلسل - إلى أن معركة العلمين، كانت نقطة تحول هامة، غيرت مجرى الحرب العالمية الثانية!

فإن ذلك الخطأ الذى وقع فيه الجاسوس المكلف بإرسال معلومات من القاهرة إلى المارشال روميل وهو على أبواب الاسكندرية، قد تسبب بالفعل في تغيير مجرى، لا تاريخ الحرب فقط، بل ربما مجرى التاريخ بشكل عام!

ولقد قال المارشال روميل الذى لقب بثعلب الصحراء ذات مرة أثناء تقدمه المذهل في الصحراء الغربية، وتقهقر القوات البريطانية أمامه: «إن جاسوساً واحداً في القاهرة، يستطيع أن يقدم لنا الخدمات مالا تستطيعه اليوم مدرعات البانزر!!»»

كان روميل في ذلك الوقت يعرف انه مقبل على مأزق وقد طالت خطوط إمداداته بما لا يتلاءم مع الامكانيات المتاحة له، وأصبحت حاجته إلى الوقوف والرجال والمعدات ماسة... وكان جاسوسه هذا الذى ينتظر منه المعلومات من القاهرة هو «جون ابلر»، أو «حسين جعفر» كما كان اسمه المصرى... والذى كتب قصته الصحفي البريطانى «ليونارد موزلى»، الذى كان يعمل وقتها مراسلاً عسكرياً في منطقة الشرق الأوسط، في كتاب يحمل عنوان «القط والفئران»!

كان السيد موزلى قد عاصر القبض على ابلر أو جعفر في القاهرة، بل وشارك في خداع جواسيس الألمان الأخرين فيها، عندما قبل، هو وزوجته، أن يتظاهرا بدعوة ابلر على العشاء في «أوبرج الأهرام» بعد القبض عليه بواسطة المخابرات البريطانية هو وزميله مونكاستر، وذلك لذر الرماد في العيون، وخداع عملاء ألمانيا الآخرين، بأن ابلر لايزال طليقاً!

كانت شبكة جون ابلر ـ أو حسين جعفر ـ مكونة من اثنين غيره، أولهما زميله مونكاستر المتخصص في الارسال اللاسلكى... أما الثانية فكانت واحدة من أشهر راقصات مصر في ذلك الوقت، وهى «حكمت فهمى».

وكانت حكمت، قبل القبض على ابلر بأيام قليلة، قد استطاعت أن تسرق حقيبة عسكرية مفعمة بالوثائق الخاصة بالجيش البريطانى في مصر، من أحد جنرالات الانجليز... كانت

المعلومات التى تحويها الحقيبة هامة للغاية... وكانت كافية، لو أنها وصلت إلى المارشال روميل في الوقت المناسب، لأن يوقع بالجيش البريطانى هزائم لا قبل له بها، لولا أن تدخلت عميلة إسرائيلية، فتاة ليل اسمها «ايفيت» كانت تعمل لحساب الوكالة اليهودية في مصر، والتى كانت مقرها في شارع قصر النيل!

الغريب في الأمر، أن كل الذين كتبوا عن هذه القضية، بما فيهم حكمت فهمى رحمها الله، تجاهلوا ذلك الدور البالغ الأهمية الذى لعبته ايفيت في الكشف عن حسين جعفر... فيما عدا السيد موزلى الذى حقق القضية، وسعى وراء حسين جعفر لسنوات حتى عثر عليه - بعد أن وضعت الحرب أوزارها - في إحدى المدن الشمالية المجهولة في المانيا!

ولقد ولد حسين جعفر في الاسكندرية من أب وأم ألمانيين... ثم توفي الأب، فتزوجت الأم من رجل مصرى فاضل، هو المستشار صالح بك جعفر... ولقد أحب الرجل ابن زوجته حباً لم يقل عن حبه لابنه الذى أنجبه من نفس الأم... بلغ به الحب أن أعطاه اسمه، ثم أعطاه اسماً مصرياً هو حسين، فأصبح اسمه «حسين جعفر»، واعتنق حسين في صدر شبابه الدين الإسلامى، وسافر مع زوج أمه إلى الأراضى الحجازية لاداء فريضة الحج...لكن كل هذا لم يفلح مع الفتى الذى استغل طيبة زوج أمه وأمواله في اللهو والعبث ومعاقرة الخمر وارتياد النوادى الليلية ومصادقة الراقصات وبنات الليل!

وفي إحدى رحلاته إلى بيروت، استطاعت المخابرات الألمانية أن تجنده هناك، وأن ترسله - عن طريق تركيا - إلى ألمانيا كى يتلقى تدريبا على فنون التجسس هناك... وفي برلين، التقى حسين بزميله مونكاستر المختص بجهاز اللاسلكى... حتى إذا حان الوقت المناسب، عاد حسين - ومعه مونكاستر - إلى مصر في مغامرة بالغة الإثارة، اخترقا فيها الصحراء الكبرى من طبرق حتى الواحات الخارجة، بقيادة كونت مجرى اسمه «المازى» كان خبيراً في دروب الصحراء الغربية ومسالكها... وكان ابلر ومونكاستر يحملان معهما حقيبتين، الأولى تحوى جهاز اللاسلكى الذى سيستعمله مونكاستر في إرسال المعلومات، والثانية تحوى خمسين ألفاً من الجنيهات الاسترلينية المزيفة تزييفاً يصعب اكتشافه، كانت قد طبعت في برلين، وفي قول آخر، في البرتغال!

اثبت حسين منذ البداية قدرته الفائقة على اقتحام المخاطر وثبات الأعصاب في الأزمات، حتى إذا ماوصل إلى القاهرة عن طريق الصعيد، لم يكن من الصعب أن يضم إليه صديقته القديمة الراقصة «حكمت فهمى»... رحبت حكمت بالمهمة من منطلق وطنى بحت، ذلك أنها، برغم الخدمات الجليلة، والمعلومات الوفيرة، والفرص العديدة التى جمعت فيها حسين، لا بالعديد من ضباط الامبراطورية الذين كانوا يثرثرون بآلاف الأسرار أمامه، بل جمعته أيضا برجال المخابرات في الجيش البريطانى... رغم كل هذا، لم تتقاض حكمت قرشاً واحداً نظير ماقدمته!!

وعلى كل فلم تكن هى وحدها التى سارت في ذلك الطريق، فلقد كان هناك العديد من المصريين الذين رأوا الخلاص من الإستعمار البريطانى في التعاون مع الألمان... كان منهم عزيز المصرى، كما كان منهم الرئيس الراحل أنور السادات، الذى تعاون في فترة من الفترات، مع حسين جعفر ومونكاستر!

لعبت حكمت دورها بمهارة فائقة، وتدفقت المعلومات على مركز قيادة روميل في الصحراء الغربية، وتوالت الهزائم على الجيش البريطانى، وكان طبيعياً أن تشك المخابرات البريطانية في وجود جاسوس يعمل لحساب الألمان في مصر، فاستقدمت ضابط مخابرات اسمه «سانسوم» كى يتفرغ في القاهرة للبحث عن هذا الجاسوس... وفي ذلك الوقت، كانت الجنيهات الاسترلينية المزيفة، قد بدأت تظهر في الأسواق، دون أن تستطيع المخابرات البريطانية أن تعثر بعد على مصدرها!

إلى أن كشفت الأمر، عميلة إسرائيلية اسمها «ايفيت»!

كانت ايفيت فتاة ليل يهودية التقى بها حسين جعفر في بار فندق الكوزموبوليتان القائم - حتى اليوم - في قلب القاهرة... في تلك الليلة، احتسى حسين ومونكاستر كمية هائلة من الخمر - هكذا قالت ايفيت فيما بعد - وكان طبيعياً أن يصحبها بعد ذلك، مع صديقة لها، إلى العوامة التى كان يعيش فيها مع مونكاستر... وهى عوامة كانت تتوسط عوامة حكمت فهمى من ناحية، وعوامة ضابط مخابرات بريطانى من ناحية أخرى... غير

أن الذى لفت نظر ايفيت منذ البداية، أن حسين كان ينفق المال بلا حساب... وفي صباح اليوم التالي، وعندما حان وقت انصرافها مع زميلتها، نفح حسين كلاً منهما عشرين جنيها استرلينيا!

كان المفروض أن تكون الفتاة ممتنة لهذا الشاب الذى منحها مبلغاً كان - في ذلك الوقت من الزمان - كبيراً بكل المقاييس... لكنها بدلاً من التوجه إلى بيتها، توجهت إلى الوكالة اليهودية في شارع قصر النيل، كى تلتقى مع مسئول الوكالة في ذلك الوقت، وكان اسمه «موشى»!

جلست ايفيت مع موشى كى تقص عليه قصة هذا الشاب الذى ينفق المال بلا حساب، والذى اعطاها جنيهات استرلينية... ولقد طلب موشى أن تريه الأوراق المالية، وكانت من فئة الجنيهات الخمس، وما أن وقعت عيناه عليها، حتى أدرك أنه وقع على كنز، وأن هذه النقود بالتحديد، هى النقود المزيفة التى تبحث السلطات البريطانية عن مروجها... فما كان منه، إلا أن احتفظ بالأوراق المزيفة، وقدم لها بدلاً منها نقوداً حقيقية!

غير أن ذلك لم يكن كل شىء، فلقد قالت ايفيت لموشى، إنها موقنة، أن هذا الشاب رغم أن اسمه حسين جعفر، وأنه يتحدث العربية بطلاقة ابن البلد - إلا أنه ليس مصرياً، بل ألمانياً!!

عند هذا الحد، اعتدل موشى في جلسته... فلقد كان الأمر فيما يختص بالأوراق المالية المزيفة، لا يتعدى قضية من تلك

القضايا البسيطة التى تنظرها المحاكم لعصابات تزييف النقود... ولقد سأل موشى فتاته تلك عن سبب ظنها بأن الشاب ليس مصرياً وأنه ألماني، فقالت: إنها سمعته يتحدث مع زميله باللغة الألمانية، وبلهجة اقليم السار!!

هنا، نجد أنفسنا أمام أمرين على قدر من الأهمية:

الأمر الأول: أن تطور العميل، أو الجاسوس، من عصر إلى عصر... يتطلب نوعاً خاصاً من الثقافة أو المعرفة تتفق مع الميدان الذى يمارس فيه نشاطه... ولذلك فإن ايفيت، رغم أنها مجرد فتاة ليل، كانت بالقطع تتقن العربية بحكم مولدها ونشأتها في مصر شأنها في ذلك، شأن اليهود المصريين جميعاً... ثم، كانت بطبيعة الحال تتقن اللغة الفرنسية، وهى اللغة التى كانت شائعة بين يهود مصر في ذلك الزمان، على اختلاف طبقاتهم... ومن ناحية ثالثة، كان لابد لها أن تتقن اللغة الانجليزية، لأنها لغة الزبائن من جنود الجيش البريطانى وضباطه، الذين كانت تلتقى بهم كل ليلة في بار الكوزموبوليتان أو في غيره من أوكار الليل... وها نحن نراها لاتكتفي بلغات ثلاثة، بل اضافت اليها، لا اتقانها للغة الألمانية فقط، بل مع معرفة تامة للهجات الأقاليم الألمانية المختلفة...

هذا هو الأمر الأول، أما الأمر الثانى، فإن الأحداث التى تلت ذلك اللقاء، تشير إلى أن موشى، مسئول الوكالة اليهودية في القاهرة كان على دراية بأن المخابرات البريطانية تبحث عن جاسوس في القاهرة رغم سرية الأمر دون شك... دليلنا على هذه

المعرفة أو الدراية، أنه عندما تأكد من الأمر، وحصل على الأدلة التى تدعم زعمه، اتجه فوراً إلى لقاء ضابط المخابرات البريطانى «سانسوم» الذى كان قد وصل إلى القاهرة خصيصاً للبحث عن هذا الجاسوس، كى يساومه على مايريد، نظير اعطائه مايبحث عنه!!!

إن تطور أساليب المخابرات من عصر إلى عصر، لم يتوقف عند حد تطوير المعدات أو الأجهزة كما يظن البعض، ولكن أيضاً مع تطوير لرجل المخابرات نفسه، الذى يبدو في وظيفته العلنية - مثل السيد موشى - جالساً في مكتبه، بينما عيونه تطلعه على كل كبيرة وصغيرة هو في حاجة إليها... ثم، مع تحليل دقيق لهذه المعلومات، ووضعها في سياق منطقى هو أقرب مايكون إلى الحقيقة، إن لم يكن الحقيقة نفسها!!

وعلى كل.. فلقد كان ماحدث هو البداية فقط، فلم يكتف موشى بما قالته ايفيت، لكنه طلب منها أن توطد علاقتها بحسين، وأن تنتهز الفرصة وتعود إلى العوامة مرة أخرى، وأن تبحث فيها عما يمكن أن يثير الشك أو الشبهات!

وفي الوقت الذى كان فيه هذا الثعلب يبدأ اتصالاته مع المخابرات البريطانية في محاولة لجس النبض أو المساومة... كانت ايفيت تتسلل ذات صباح الى داخل العوامة من خلال نافذة كانت مفتوحة، كى تجد حسين ومونكاسترغارقين في النوم، وقد تناثرت في العوامة الزجاجات والكؤوس الفارغة مما ينبىء عن

ليلة كانت صاخبة... ولقد بدأت بحثها، ولم يكنْ من الممكن أن تعثر على جهاز اللاسلكى الذى كان مخبأ بمهارة... لكنها، وسط ركام الزجاجات والكئوس والأطباق وبقايا الطعام، عثرت على مجموعة من الأرقام إلى جوار كتاب، وكان الملفت للنظر أن هذه الأوراق كانت تحوى أرقاماً وحروفاً ذات طابع خاص، وعرفت ايفيت على الفور أن هذه الأرقام ليست سوى شفرة للارسال اللاسلكى، أما الكتاب، فكان لرواية عاطفية هى «ربيكا»... فجلست في هدوء، ونقلت الأرقام والحروف، كما كتبت تاريخ طبعة الكتاب الذى عرفت بالطبع، أنه مفتاح هذه الشفرة!

... ...

... ...

عندما ذهب موشى ذات يوم إلى نادى الجزيرة، كى يلتقى إلى جوار حمام السباحة برجل المخابرات البريطانى «سانسوم»، وعندما بدأت المساومات، أدرك سانسوم أن كل ماتوصلت إليه عميلة موشى، يلتقي تماماً، ويكمل، ما كان قد توصل إليه من بحث!

وهكذا تم القبض على حسين جعفر وهو يحاول جاهداً، مع زميله مونكاستر... الاتصال بمحطة الاستقبال، كى يبث لها ماوجده في الوثائق التى جاءته بها حكمت فهمى، لكن... لكن القدر والاهمال، لم يمهلاه.

ويبقى أمامنا سؤال:

ماذا لو وصلت تلك المعلومات إلى المارشال روميل في الوقت المناسب؟! ... يقيني أن الجواب ليس في حاجة إلى تفكير، فلقد كان طبيعياً أن يتغير مسار الحرب، وأن يتغير معها، مسار التاريخ!!!

• • •

وإذا كان لابد للتداعي أن يشدنا... فإن الفتاة اليهودية ايفيت، كانت مجرد فتاة ليل، عميلة من مئات، وربما ألوف العملاء الذين عملوا لحساب الوكالة اليهودية التى انتشرت مكاتبها في كل أرجاء الدنيا... فلابد لنا أن نتساءل وليس السؤال جديداً: ماذا عن اليهود والتجسس؟!

بالرغم منا، نتذكر هؤلاء الذين يملكون الملايين، والمؤسسات، والمراكز، وعوامل القوة؟!

بالرغم منى، اتذكر قصة آل روتشيلد!

ولكن... هذا حديث آخر!!

اليهود والتجسس

... ... وهكذا يجرفنا الحديث إلى حيث لم نبتغ أو نخطط، وإذا كان السياق قد حملنا إلى العميلة اليهودية «ايفيت» التى كشفت أمر الجاسوس الألمانى «جون ابلر» إلى المسئول عن الوكالة اليهودية في القاهرة، فلقد استدعى الأمر الحديث عن «اليهود والتجسس»...

وعلى كل، فلا بأس، شريطة أن يكون حديثنا موضوعياً، بمعنى... أن الحديث لا يجب أن يكون من منطلق مسبق وموقف جامد، ولكن بمعنى أن يكون حديثاً محايداً - لا بالنسبة للقضية - قضية فلسطين - بطبيعة الحال - ولكن بالنسبة لدراسة الظاهرة، حتى ولو كانت الدراسة مجرد خواطر تعن للمرء فيرسلها على الورق ارسالاً لا منهج له... ذلك أن الموقف المنحاز مسبقاً، سوف يفقد حديثنا مصداقيته... ولقد كانت هذه واحدة من أخطر عيوبنا في الثلث الأخير من القرن العشرين، ففقدان الموضوعية في

البحث، سوف يفقدنا تلك البوصلة المرشدة التي قد لاتوصلنا الى الحقيقة كاملة، وإنما - على الأقل - سوف تقودنا إلى أقرب مايكون إليها... أن التخلي عن الموضوعية، والانسياق وراء العواطف، سوف يجعل الأمر كله مثل هتاف في مظاهرة، وليس معلومة نبغي من ورائها نفعاً لنا وللآخرين.

هذه بداية كان الدافع إليها، انني ما أن كتبت السطر الأخير في الفصل السابق، حتى وجدت نفسي أسير عدداً ليس بالقليل من الكتب والدراسات واجزاء من دوائر معارف وشروح و... و... وهو بالفعل بحر عميق الغور، يستلزم تفرغاً لانملكه...

غير أن الملفت للنظر حقاً، أن اليهود كانوا - دائماً - على خلاف مع «كل» الشعوب التى انتموا اليها، فما من شعب عاشوا معه إلا وكان الخلاف بينهما هو السمة الغالبة على العلاقة بينهما... فمن أقدم العصور وحتى العصر الحديث، كانوا مبعدين، وفي بعض الأحيان منبوذين... في روسيا القيصرية، في بريطانيا العظمى، في أوروبا الوسطى والشرقية، في ألمانيا ورومانيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا... و... وحتى في الولايات المتحدة منذ ان قال فيهم «جورج واشنطن» ما قال، ومنذ أن عانى منهم «إبراهام لينكولن» - محرر العبيد! - وحتى هنرى فورد في أوائل هذا القرن، وكتابه «اليهودى العالمى» ليس بعيداً عن الأيدى، وإن كان الرجل قد اضطر - رغم ثرائه ومكانته - إلى الاعتذار عنه وإنكاره، وان كان هناك من يؤكد أن هذا الاعتذار مزورا!!

قال هنرى فورد في كتابه هذا الذى نشر في عام ١٩١٢: إن الكلام الوحيد الذى أحب أن اعلق به على بروتوكولات حكماء صهيون، هو أن هذه البروتوكولات قد تنبأت تماماً بما يجرى حتى اليوم وقد مضى على ضبطها ستة عشر عاماً!!»

وهنا، نجد أنفسنا أمام حقيقة بالغة الغرابة، وهى حقيقة جديرة بالتوقف أمامها، ودراستها دراسة متأنية... ذلك انه، سواء أكان اليهود هم السبب فيما لحق بهم من اضطهاد، أم أن الأمر كان موجهاً ضدهم نتيجة لتعصب أعمى، فلقد كان هذا التعصب وهذاالاضطهاد يصدران عن مسيحيين أوروبيين بالتحديد...

ولقد يصبح من المُفيد أن نستطرد قليلاً في هذا الأمر، لا لشىء، إلا لكى نوضح أن عرب فلسطين - مسيحيين ومسلمين! - قد دفعوا ثمن مافعله غيرهم.

ففى كتاب السيدة «ناتالى رين»: «بنات السيدة راشيل في إسرائيل»، والذى ترجمته دكتورة «سهام منصور» تحت عنوان «المرأة اليهودية»... تورد المؤلفة في الفصل الأول من الجزء الأول، والذى عرضت فيه لموقف اليهود في أوروبا ابان القرن التاسع عشر، وحتى أوائل القرن العشرين... وبالتحديد في روسيا القيصرية، مجموعة من الحقائق ذات الأهمية الخاصة، اذ تلقي الضوء على حقائق لايجب ان نغفلها، فهي تقول:

«... ... ان الأمور بعد وفاة الامبراطورة كاترين قد تعقدت

كثيراً بسبب: استغلال أصحاب الخانات ـ الخان هو المتجر ـ اليهود للفلاحين!!..»

وهى تنقل عن الكاتب الأمريكى «لويس جوينبرج» قوله في كتاب: «اليهود في روسيا ـ صراع أم عتق من العبودية ـ !!!» قوله:

«... ... ... منع اليهود في عام ١٨٢١ من المجيء إلى الأقاليم الروسية الداخلية حتى لمجرد التجارة، وأعلن في عام ١٨٢٥ عن اقفال اقليم استراخان والقوقاز أمام اليهود بعد أن كانا مفتوحين أمامهم منذ عام ١٨٠٤!»

وفي مكان آخر تقول المؤلفة:

«... ... ... لم تكن الحياة تطاق عامة في «الشتيتل» ـ وهو الاسم الروسى القديم للمستوطنات الإسرائيلية التى أنشئت حول المدن في روسيا القيصرية ـ فالنظام الفظ الذي اتبعته عائلة «رومانوف» ـ تلك العائلة التي حكمت روسيا قرابة ثلاثة قرون وحتى اسقطتها الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ـ وكراهيتهم المسعورة لليهود، تسببت في صعوبات لا تطاق، وكانت تهاجم الشتيتل موجات متتالية من قطاع الطرق، مخلفين وراءهم الموت والبؤس... تلك المذابح المنظمة التى أذنت بها الطبقة الحاكمة، وتجاهلتها الشرطة، باتت جزءاً متمماً للحياة في الشتيتل، وقد حُرم يهود المقاطعة ـ أى المستوطنة ـ من الحقوق الانسانية، فلم يتمكنوا من التطور، وأوصدت أمامهم سبل الحياة الطبيعية للمدينة، كما لم

ينالوا أي قسط من التعليم والتربية فظلوا أميين جهلة... ...!!»

غير ان ذروة الاضطهاد قد تمثلت في تلك القوانين التى أصدرها القيصر الاسكندر الثالث في مايو/آيار عام ١٨٨٢، وهى قوانين عرفت في تاريخ روسيا القيصرية باسم قوانين مايو... ولقد نصت هذه القوانين على:

١ - يحظرعلى اليهود الاستيطان خارج المدن وضواحيها.

٢ - تلغى عقود البيع والايجار للعقارات المعقودة باسم اليهود خارج المدن وضواحيها.

٣ - يحظر على اليهود ممارسة التجارة أيام الآحاد والأعياد المسيحية.

فاذا وضعنا في اعتبارنا، ان يوم السبت هو يوم عطلة عند اليهود يمتنعون فيه عن القيام بأى نشاط سوى التعبد، فلقد جاء هذا التقييد الأخير كي يحد كثيراً من قدرتهم على كسب لقمة العيش.

• • •

هكذا كان الأمر في روسيا القيصرية، هذا غير تلك القصص التى حملها معهم يهود بولندا وغيرها من دول وسط أوروبا، حيث كان الطفل اليهودى منبوذاً، لا يستطيع مشاركة غيره من الأطفال العابهم أو نشاطاتهم...

فماذا عن اليهود في الدول العربية؟!

إن ثمة ظاهرة يجب أن توضح تحت مجهر دقيق للرد على مزاعم بعض الصهاينة... وهي أن اليهود - في الدول العربية - لم يعانوا ولم ينبذوا، بل كانوا نسيجاً داخل المجتمع وجزءاً منه... فلقد كانوا - في العراق مثلاً - من أغنى الأغنياء، ولازال اليهود الذين نزحوا من العراق إلى إسرائيل، من أغنى الجاليات في إسرائيل حتى اليوم... وفي سوريا، لازال اليهود السوريون موجودين حتى كتابة هذه السطور، يعيشون بين السوريين من مسلمين ومسيحيين على قدم المساواة، وكل ماتفرضه عليهم الحكومة السورية، هو انهم، إذا سافروا، فعليهم أن يغادروا إلى أية دولة في العالم ماعدا إسرائيل... وهذا - على مايبدو لأى منصف - أمر طبيعى بين دولتين في حالة حرب... وفي شبه الجزيرة العربية بكل دولها، لم نسمع عن يهودى اضطهد، وفي تونس، والجزائر... أما المغرب، فملا زالت نسبة كبيرة - حتى هذه اللحظة - ، وبالرغم من الحروب بين العرب وإسرائيل فإن الشعب المغربى من اليهود لم يهاجروا إلى إسرائيل!

أما في مصر، فالأمر يختلف كل الاختلاف!

وإذا كنت قد كتبت في إحدى حلقات الجزء الأول من مسلسل «رأفت الهجان»، وعلى لسانه... أنه شب كى يجد لأبيه صديقين، هما عم رزق وعم زكى، وأن أحدهما كان مسيحياً والآخر يهوديا... فهذا الذى كتبته لم يكن ابداعاً خالصاً، والحكاية في الأصل وقعت لى أنا شخصياً!!

فهذان الاسمان حقيقيين لصديقين لأبى رحمة الله عليه، وكان الأصدقاء الثلاثة عادة مايلتقون في المساء... وفي بعض الأحيان، إذا كان اليوم يوم الخميس، كان أبى يصحبنى معهم وأنا طفل لم أتجاوز العاشرة... وقبل بدء السهرة، كان لابد لأبى أن يؤدى صلاة العشاء في المسجد، فيدخل عم رزق وعم زكى معه، ويجلسان في آخر المسجد حتى ينتهى أبى من صلاته، ثم يبدأن السهرة!

لقد عشت هذا بنفسى، ويقينى ان جيلى كله قد عاش هذا بشكل أو بآخر... غير أن الأمر لاينتهى عند حد الطفولة... ففى صدر شبابى، وعندما التحقت بالبحرية، كنت اسكن في بنسيون في الاسكندرية كانت تملكه سيدة يهودية لها ولد اسمه إيزاك وابنة اسمها جان، وكانت أرملة تؤجر غرفة واحدة في مسكنها تعينها على الحياة بعد وفاة زوجها، وأصبحت هذه الغرفة من نصيبى... وما أن مرت بضعة أيام - أنا أعنى الكلمة! - حتى أصبحت جزءاً من هذه العائلة... وبين الحين والحين، كان يأتى لزيارة الأسرة، طبيب قاهرى شاب كان يسكن الغرفة قبلى عندما كان طالبا بطب الاسكندرية، وكان اسمه ناجي، وكان مسيحى الديانة... ويوم زيارة ناجى للبنسيون، كنا نقضى معاً وقتا ممتعاً بحق... العائلة اليهودية، وناجى المسيحى، وأنا المسلم... كان هذا بعد عام ١٩٤٨، بل كان بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ بعام وبعض العام!

وقد يزعم أحد بأن هذه كانت حالة خاصة، أو علاقة فردية...

فماذا عن اليهودي في فيلم «لعبة الست» الذي مثله نجيب الريحاني - المسيحى - وتحية كاريوكا - المسلمة - والذي قدم كأحسن ما يكون التقديم احتراماً وثراء ومهابة... والذي قام بدوره فناننا الراحل سليمان نجيب!!

أن الفن ليس حالة خاصة، وإنما هوانعكاس لمجتمع بأسره!!

فاليهود - أبداً - وحتى رحلوا من مصر، لم يضطهدوا، ولم ينبذوا رغم أنهم كانت لهم حارة اشتهرت، ولازالت حتى اليوم، تحمل اسم «حارة اليهود»!

وعلى كل... يبقى السؤال قائماً: لماذا؟!

لماذا كان هذا الخلاف الدائم بينهم وبين الشعوب الأخرى؟!

ربما كان السبب يكمن، لا في طبيعة اليهودي، وإنما في معتقداته!

ولأن اليهود كانوا أول شعب عرف الله الواحد معرفة حقيقية، فلقد أصبحوا - دون شك - «شعب الله المختار»... ولسوف نتجاهل هنا تماماً، ديانة اخناتون التوحيدية، والتى أراق العديد من العلماء والمفكرون - ومنهم يهود - أطنانا من الحبر في الكتابة عن العلاقة بين اخناتون ونبى الله موسى عليه السلام... الذى قال عنه العالم النفسى اليهودى «سيجموند فرويد» في كتابه «موسى والتوحيد»، انه إما أن يكون هو نفسه اخناتون، أو - على الأقل - واحداً من قواده، كان حريصا على اخراج المؤمنين بالله واحد أحد، من مجتمع ارتد إلى ديانته القديمة...

أقول، لأنهم كانوا شعب الله المختار، فلقد تعالوا على الجميع، ونظروا للآخرين من اطراف أنوفهم... فهم فقط الذين عرفوا الرب، وفيما عداهم وثنيون لم يجيئوا من سلالة آدم، بل هم من «الجوييم» أى «الأغيار» فى أكثر الترجمات تهذيباً لهذه الكلمة... ونحن هنا لا نطلق الأحكام على عواهنها، وإنما مراجعنا أساساً من التوراة، أو ممن اعطوا للأمر وقتاً، ودرسوا ومحصوا، وجاءت نتائج دراستهم، فوق الشبهات !!

وعلى سبيل المثال، فإن الكاتب المصرى «شفيق مقار» ـ وهو مسيحى الديانة كما يدل على ذلك اسمه، أى أن التوراة بالنسبة إليه كتاب مقدس كالانجيل سواء بسواء، فالتوراة هى «العهد القديم» و «الانجيل» هو «العهد الجديد» ـ يؤكد في كتابه الهام «قراءة سياسية للتوراة» أن التوراة التى بين ايدينا الآن، ليست هي التى جاء بها موسى عليه السلام، وإنما هى من وضع أحبار اليهود.. وهو في الفصل الثالث من الكتاب يقول:

«... ... ... إن مفهوم "الخصوصية" والأفراد العرقى تسلط على الأذهان المباركة وحرك أيدى الأحبار وهم يحررون ذلك العهد ـ العهد القديم ـ فهم ابتداء لا يكفون عن تحذير قومهم على لسان الآلهة وبألسنتهم، من الاختلاط بالاقوام أو أمم الأرض الأخرى.. ولعل المثال الصارخ على هذا مايؤكده «حزقيال» ـ صاحب السفر المعروف باسمه في التوراة ـ من أن الرب قال له إنه: «غاضب على المرأة.. أهوليبة، التى يبدو أنها كانت سيدة معشاقه. لأنها: «نزلت بأرض مصر وعشقت معشوقيهم الذين لحمهم كلحم

الحمير، ومنيهم كمنى الخيل».

هذا نص من التوراة يوضح كم التعالى على الآخرين، وحكاية «أهوليبة» حكاية قديمة وقعت منذ آلاف السنين حقاً، ولكن... هناك ماهو أقدم حتى من نبى الله موسى... ففى سفر «التكوين» - أول أسفار التوراة - تقول السيدة رفقة زوجة نبى الله «اسحق» - ابن ابراهيم ووالد يعقوب الذى هو اسرائيل عليهما السلام - لزوجها، وكانت قد علمت أن ولدها يعقوب، ينوى الزواج من إحدى بنات «حث»:

«مللت حياتي من أجل بنات «حث»، إن كان يعقوب يأخذ زوجة من بنات «حث»، مثل هؤلاء فلماذا لى حيوة؟!»

ويقول شفيق مقار موضحاً الأمر: «... ... ... وإذا ما ترجمنا اللغة التوراتية إلى لغة كل يوم، وجدنا رفقة تقول لزوجها: «أدركنى.. لقد أوشكت روحى أن تطلع من بنات الحثيين، فوالله لو أخذ ابننا يعقوب له زوجة من هذه الأشكال، لأصبح الموت أرحم لى!!!».

هكذا من البداية كان التعالى، والابتعاد، لا من الناس... ولكن من الاسرائيليين أنفسهم!

ولقد تطورت تلك النظرة، مع الزمن وتطور الحضارات، إلى أن أصبح لليهود في كل مدينة «جيتو» يعيشون فيه في عزلة عن الآخرين.. وإذا كان الأمر كذلك، فالى أين تؤدى هذه العزلة؟!

ألا تؤدى بطبيعة الأمر، إلى أن يصبح لليهود حياة مختلفة

تماماً، بل... إلى أن تصبح الديانة أو الشريعة الموسوية نفسها، لا يسمح بطرحها للبحث!

ونحن نقرأ في البروتوكول الرابع عشر، من بروتوكولات حكماء صهيون:

«... ... ... غير أنه لن يسمح بأن يطرح ديننا للبحث ابتغاء الوقوف على مقاصده وغاياته الصحيحة، إن هذا عمله محصور بنا مقصور علينا وحدنا، ونحن دائما حريصون على ألا نبوح بأسراره لغيرنا! »

هنا... لابد لنا من التوقف قليلا كى نوضح أمراً نراه على جانب كبير من الأهمية.

ذلك أن أى دارس للديانة اليهودية أو الفكر الصهيونى، لابد له من الاعتماد على ثلاثة مصادر رئيسية - اقول رئيسية وليس فقط! - هى: التوراة، التلمود، ثم بروتوكولات حكماء صهيون!

وإذا كان أمر التوارة معروفاً، فإن التلمود هو الكتاب الذى يقول الأحبار، إنه يضم وصايا موسى السرية، لسبعين من زعماء إسرائيل، وهو، أي التلمود، أكثر قدسية عند بعض اليهود من التوراة نفسها بالرغم من أنه ليس منزّلاً، وانما هو من وضع الأحبار!

أما البروتوكولات، فهى تلك التى ضبطتها الشرطة القيصرية الروسية في مدينة «بازل» السويسرية، إبان انعقاد المؤتمر اليهودى عام ١٨٩٧، وهى أربعة وعشرون بروتوكولاً تضع النهج

الذي على اليهود أن يتبعوه لتحقيق هدفهم الأسمى، وهو السيطرة على العالم، وإقامة ملك بني اسرائيل.

ولقد أنكر اليهود انها حقيقة، قالوا إنها مدسوسة عليهم، وإنها مزيفة ومن وضع من لا علاقة لهم به، بل إن بعض الكتّاب العرب قد ذهبوا أخيرا الى هذا الرأي مثل الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه الذي صدر أخيرا عن «الجمعيات السرية في العالم»... خاصة في الفصل الأول من الباب الأول، والذي يتحدث فيه عن «البروتوكولات»، فينفي فيه نسبتها الى اليهود، ذاهبا الى أن:

«... ... الرأي السائد الآن في الأوساط العلمية التي قامت بدراسة البروتوكولات دراسة علمية متعمقة، هو أن البروتوكولات وثيقة مزورة استفاد كاتبها من كتيب فرنسي كتبه صحفي يدعى «موريس جول» يسخر فيها من نابليون الثالث بعنوان «حوار في الجحيم» بين مكيافيللي ومونتسكيو، أو السياسة في القرن التاسع عشر، ونشر في بروكسل عام ١٨٦٤ - أي قبل ان تضبط البروتوكولات بثلث قرن كامل!! - فتحول الحوار الى مؤتمر، وتحول الفيلسوف الى حكماء صهيون... ... ...»

ثم يذهب الدكتور المسيري الى ان البروتوكولات:

«... ... ... ليست نقدا لليهود بمقدار ماهي تعبير عن احساس الانسان الاوروبي في أواخر القرن التاسع عشر بأزمته!!»

ونحن، اذا كنا نختلف مع الدكتور المسيري حول ما ذهب اليه، فان اختلافنا هذا له أسبابه، وليس هنا مجال مناقشة هذه الأسباب... ولكن، يكفي أن نقول ان «لب» البروتوكولات فيما يتعلق بالنشاطات التي تعرضت اليها ـ خاصة التجسس والاعلام على وجه التحديد ـ نجده اليوم متحققا، ليس بحذافيره كما قال رجل الصناعة الأمريكي هنري فورد في أوائل هذا القرن، ولكن الى حد ملفت للنظر وباعث على التفكير... حقاً، هناك مؤسسات دول كبرى، ومصالح الى آخر ما قال به الدكتور المسيري، ولكن هذالاينفي ان واضع البروتوكولات أو واضعيها، كانوا يستهدفون بالفعل السيطرة على العالم، وان التاريخ، بل التجربة الانسانية خلال قرن كامل من الزمان، تؤكد ان علينا ان ننفذ الى ما وراء القشرة الخارجية الى لب الأمور وآلية تحركها في الباطن، ولسوف يكتشف العجب... ويكفي هنا ان اذكره بالدراسة التي وضعها الاستاذ عجاج نويهض مترجم البروتوكولات الى العربية، والتي يتحدث في أحد فصولها عن الكاتب الصهيوني «أشرجنزبرج» الذي عرف باسم «أحدها عام»... والتي أوقن انه قرأها، بل ودرسها وكانت محل اهتمامه... ان قراءة أخرى متأنية لتاريخ «أحدها عام»، مع مقارنة لسير الأحداث خلال مايقرب من مائة عام، سوف تكشف بالقطع له الكثير...

ولنعد الى ماكنا فيه.

إن الحياة السرية التى فرضها اليهود على أنفسهم، كانت تستلزم ـ بالضرورة ـ نوعاً من التنظيمات السرية، وهذه بدورها،

تستلزم نوعاً من الاتصالات السرية التى تحتاج - دون شك - إلى وسائل سرية لتحقيقها... وهذا كله - ببساطه - ليس سوى عمل من أعمال المخابرات والتجسس.

ولنأخذ مثالاً من البروتوكول السابع عشر الذى جاء فيه:

«... ... ... فاخواننا اليوم مكلفون تحت طائلة أخذهم بالمسئولية والحساب العسير في حالة الإهمال أو التقصير، بأن يبلغوا هيئة «القبالا» عما يتاح لهم أن يطلعوا عليه من حوادث ارتداد عن الدين اليهودى من أبناء اقاربهم، أو مايرونه من شغب على هيئة «القبالا» أو قذفها بتهمة» !!!

اليس هذا تجسسا بكل ماتحمل الكلمة من معنى؟!

أن الأمر لايتعدى التبليغ فقط، بل أن على «إخواننا» - الذين هم الجواسيس والعملاء - أن يبلغوا جهة واحدة فقط، هى «القبالا» ، وهى تقابل - من هذا المنظور - «جهاز المخابرات» في العصر الحديث!!

ولكن، وحتى تتجلى الصورة أمامنا، لابد لنا أن نتساءل: «ماهى هيئة "القبالا» هذه» ؟!

أن الكلمة في حد ذاتها لاتترجم، فهى تنطق بالعبرية كما تنطق بالعربية أو الانجليزية أو الفرنسية... ويقول قاموس «المورد» عن كلمة «Cabal» أو «Cabala» بالنص:

«فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود، وبعض نصارى

العصر الوسيط، مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفيا!»

غير أن الأستاذ «عجاج نويهض» الذى عاصر بداية الحركة الصهيونية في فلسطين والأحداث التى واكبتها منذ ماقبل الحرب العالمية الثانية، وأيام الانتداب البريطانى وحتى قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، وما صاحب كل هذا من أحداث ومعارك ومؤامرات واتصالات كان له منها بعض النصيب... يقول الاستاذ «نويهض» عن كلمة «قبالا»:

«... ... ... لفظة عبرية قديمة، لها في الوجود عند اليهود بمعناها السرى، تسعة عشر قرنا، وليس لها وجود في الكتب العربية على اختلافها، إلا ماقد يكون عرضاً... وعلى الجملة لا يعرفها العربى إلا سماعا نادراً !»

غير أنه في تفسيره لمعنى الكلمة كما وردت في البروتوكولات فيقول:

«القبالا عند حكماء صهيون هى السلطة التى ليس فوقها سلطة !»

كان أمراً طبيعيا إذن، أن يلجأ اليهودى إلى التجسس منذ فجر التاريخ، ليس فقط منذ بداية القرن الثامن عشر وحتى نهايته عندما ضبطت البروتوكولات، وانما منذ طلب الرب في التوراة من موسى عليه السلام، أن يتجسس أرض كنعان.

وعلى كل... فإن نفس البروتوكول - السابع عشر - يقول بعد أن يوضح علاقته بالديانات الأخرى، وكيفية استخدام المحاكم والقضاء حتى يصبح: «... ... ملك اليهود هو البابا الحقيقى للمسكونة كلها، وبطريرك كنيسة دولية عالمية»... يقول بعد هذا، وهنا مربط الفرس:

« ... ... وتقضى برامجنا، بأن يعمل ثلث الشعب فى التجسس علي الثلثين الآخرين، ويكون التجسس منبعثاً من الشعور بالواجب، وعلي قاعدة التطوع بالخدمة فى سبيل الدولة، وفى هذا الوقت، لايكون من العار أن تكون جاسوساً ومخبراً بل يكون ذلك مزية وفضلاً... فاذا انطلقت الألسنة بالمعايرة أو القذف، نالت جزاءها، وحفظت للتجسس كرامته!»

... ...

... ...

أن المرء لايملك، عندما يقرأ مثل هذا النص الحرفي، إلا أن يقف مشدوهاً أمام مايرمى إليه... فالتجسس ليس فقط ضد «الجوييم» - الذين هم كل البشر ماعدا بنى اسرائيل - حتى تتحطم دولهم وتنقرض دياناتهم وتنهار اقتصادياتهم، بل إنه يظل مفروضا من ثلث الشعب على ثلثيه - وكلمة الشعب لاتطلق في التوراة أو التلمود أو البروتوكولات، إلا على بنى اسرائيل فقط - حتى بعد قيام مملكة اسرائيل الكونية، وسيطرتها على الكرة الأرضية!!!

• • •

إلى هنا لابد لنا من التوقف، فالموضوع واسع ومتشعب، والآراء فيه لا نهاية لها ولاحدود... غير أننا لانملك، قبل أن نختم هذا الفصل، إلا أن نضع بعض مما جاء في البروتوكول الأول، الذى يعتبر بشكل عام، هو المدخل لكل البروتوكولات التى تليه، في فقرة تركز الفلسفة التى يقوم عليها.

ذلك أن واضع البروتوكولات، كان حريصا على وضع الأساس الفكري لهذه الفلسفة في هذا البروتوكول بقوله أن: «كل فرد يود أن يصبح ديكتاتوراً»... ومن العبث أن نصدق كل مايقال عن الحرية والعدالة وكل هذه الألفاظ الجوفاء، ذلك أن: «الحرية السياسية هي فكرة مجردة لا واقع حقيقي لها، تلك الحرية المسماة باسم الليبرالية!»... وهم إذا كانوا يزعمون أنهم ساهموا في اشعال الثورة الفرنسية، وصك شعار الحرية والاخاء والمساواة، فهم إنما فعلوا ذلك كى يخدعوا .مثالنا من «الجوييم»... ولكن الآن قد مضى عهد كل هذا: فاليوم، نجد أن القوة التي نسخت قوة الحكام من أنصار الليبرالية، هي: الذهب!!».ولذلك، يجب أن يكون الذهب هو السلاح لا الاخلاق، لأن: «السياسة مدارها غير مدار الأخلاق!»... وبناء عليه، فيجب ان تستعمل كل الوسائل المتاحة، لسحق خصمك في الداخل فـ «إذا كان لكل دولة عدوان، عدو خارجي وآخر داخلي، وكان من حق الدولة أن تستعمل ضد العدو الخارجي كل وسيلة وطريقة وحيلة للانتصار عليه، ألا يحل لها أن تستخدم نفس الأساليب ضد العدو الداخلي الذي يعتبر أخطر؟!»... كل هذا

من أجل هدف أسمي، هو: «نسف أرستقراطية الجوييم نسفاً تاماً، كى نبنى على انقاضها، ارستقراطية من طبقتنا المهذبة الراقية، تتوجها ارستقراطية المال!!!»

• • •

نعم... ارستقراطية المال!

فهل هناك من يمكن ان تستدعيه الذاكرة بعد هذا، أكثر من «آل روتشيلد» الذين وصفتهم دائرة المعارف الأمريكية - «امريكانا» - بأنهم ذوو ثراء اسطوري؟!

من روتشيلد إلى دزرائيلي

ثمة ظاهرة إنسانية تبدو ملفتة للنظر، وهى أن أى تعصب، مهما كانت أصوله الفكرية أو الفلسفية أو حتى الدينية، مردهُ إلى هزيمة نكراء، طال الزمان أم قصر... ذلك أن التعصب قد ينجح في مرحلة، وقد يحقق انتصارات مؤقتة، لكنه في النهاية يسقط أمام جدار المقاومة الإنسانية لفرض فكر معين، أو جنس بذاته، أو فلسفة يرى أصحابها أنها منزهة عن الخطأ!!

ولعل أبرز أمثلة التعصب في العصر الحديث، هى تلك النعرة التى خرج بها فلاسفة الفكر النازى في ألمانيا في الثلث الأول من هذا القرن حول تفوق الجنس الآرى على ماعداه من الأجناس... ولقد فتن الشعب الألمانى في البداية بزعامة هتلر الذى حمل لواء هذه الفلسفة، فتن به لأنه وجدفيه الخلاص بعد هزيمته في الحرب العالمية الأولى، واستطاع هتلر أن ينهض بألمانيا فعلا، وأن يعيد بناء الجيش الألمانى والصناعة الألمانية، وأن يسترد لدولته مكانتها

إلى الحد الذي جعل رؤساء الدول يحاولون استرضاءه... ومثل هذه النظم عادة ماتحمل بذرة فنائها، لذلك... فهي تصبح في حاجة الى نظام بوليسي صارم، وأجهزة مخابرات ذات كفاءة عالية، وجواسيس وعيون في كل مكان، بل ربما في كل بيت، ولقد عرف اسم الادميرال «كاناريس» - رئيس المخابرات الألمانية في عهد هتلر - كواحد من أعظم رجال المخابرات في القرن العشرين، لكن الغريب في الأمر، أن «كاناريس» كان واحداً من الذين تآمروا على هتلر في أواخر أيامه... ذلك أن التعصب كان قد أعماه، وبعد أن كان مسيطراً على القارة الأوروبية، وبعد أن وصلت جيوشه إلى مشارف موسكو، سقط أمام المقاومة الإنسانية من الشرق والغرب معاً، ومُزقت دولته شر ممزق، وشُطرت الى نصفين لم يلتئما إلا بعد مرور نصف قرن من الزمان!!

من هنا... فإن حديثنا عن اليهود والتجسس، ليس سوى نظرة نلقيها على مجريات الأحداث كما حملها لنا التاريخ لعلنا نستفيد منها، فالتجسس نشاط إنساني شأنه شأن النشاطات الإنسانية الأخرى، فليس لنا إذن موقف متعصب من فكر قد نراه متعصباً، ذلك أن مواجهة التعصب بالتعصب لن تجدى لسبب بسيط، هو أن كلا الطرفين سيكونان على خطأ!!

ولعل ذلك التعالى الذى يصطدم به المرء إذا ماتتبع تاريخ بنى إسرائيل منذ ظهورهم كشعب، وعبر كل مراحل التطور الإنسانى الذى استهلك آلاف السنين، والذى كان يدفعهم، لا إلى الترفع على «الأغيار» فقط، بل الابتعاد عنهم وتحريم التزاوج منهم،

يدفعنا الى التساؤل: هل «الناس» هم الذين نبذوا اليهود، أم أن اليهود هم الذين نبذوا الآخرين من كل ملة ودين؟!

ولسوف نجد أنفسنا أمام سؤال يفرض نفسه علينا فرضا... وإذا كنا نملك ـ بالرغم منا ـ عقولاً جبلت على التفكير، أفلا يصح أن تكون الحقيقة الغائبة، هى أن اليهود هم الذين نبذوا الناس وتعالوا عليهم ورفضوا التعايش معهم... ثم، إذ هم يصرخون بأنهم مضطهدون ومنبوذون عندما لاتلبى مطالبهم واحتياجاتهم كنوع من أنواع الضغط؟!

... ...

... ...

ليس هناك شك في أن اليهود برعوا ـ بطول التاريخ وعرضه ـ في الاقتصاد، وليس هناك شك أيضا أنهم لعبوا في كل حضارة عرفتها الكرة الأرضية دوراً ترك أثره على هذه الحضارة أو تلك... غير أنه من الملاحظ أن المال بصفة خاصة، كان هو سلاحهم السحرى الفعال، إلى جانب أسلحة أخرى، منها تلك المناورات السياسية الخفية، التى تدفعهم دفعاً إلى «التجسس» كوسيلة من أهم الوسائل التى تساعدهم على تحقيق أهدافهم!

فمثلا... في كتاب «اليهود»، الذى جمع فيه الأستاذ «زهدي الفاتح» حوالى خمسمائة من أقوال العظماء والزعماء والقادة والقياصرة والأباطرة والملوك والأمراء والشعراء والاقتصاديين والسياسيين والفنانين، وعلى مدار التاريخ الحديث كله... في

هذا الكتاب يقول الجنرال الألماني الكونت« هيلمت فون مولنكي» في خطاب ألقاه يوم ٣٠ أكتوبر عام ١٩٣٧:

«... ... ... ومعروف، إبان حملات ١٨١٢ - تلك الحرب التى نشبت بين روسيا القيصرية وألمانيا - أن الجواسيس اليهود كانوا يقبضون الأموال من كلا الطرفين المتحاربين - الروسى والألماني - ويخونونهما معاً، وفي نفس الوقت!».

فإذا قال قائل: إن هذا الجنرال الألمانى كان متعصباً ضد السامية، مناصراً للجنس الآرى، فماذا نقول عن رجل الصناعة الأمريكى الشهير «هنرى فورد»، الذى قال في كتابه «اليهودى العالمى»:

«... ... ... ويعامل المال اليهودى الأحزاب السياسية على قدم المساواة، إذ يراهن عليها جميعا فيضمن بذلك الايخسر، وهكذا... فإن المال اليهودى لايخسر أية حرب من الحروب، فهو يقف مع الجانبين، وتكون شروط الصلح التى يضعها، كافية لتغطية القروض التى قدمها إلى الجانب الخاسر!!»

وسواء أكان الأمر هذا أو ذاك، فإن التجسس هنا يفرض وجوده فرضاً!!

ويقول بسمارك في مجلة فرنسا القديمة في مارس ١٩٢١:

«... ... ... كانت طباع لينكولن - الرئيس الأمريكى الذى عرف بمحرر العبيد - تحول دون انحيازه إلى جانب حزب واحد، ولقد فطن فور تسلمه مسئولية الحكم الى أن «الروتشيلديين»

رأسماليي أوروبا الفاسدين المفسدين، يريدون أن يجعلوا منه مطية لتحقيق مآربهم!»

فمن هم هؤلاء الرتشيلديون؟!

... ...

... ...

وحتى لانتهم بأننا ننقل عن أناس معادين للسامية، أو أننا نناقض أنفسنا ونتعصب بموقف مسبوق، سوف ننقل عن دائرتى معارف أمريكيتين، ومن المحال أن تكونا معاديتين للسامية، ماجاء فيهما عن آل روتشيلد، وهو شديد الايجاز!

تقول دائرة المعارف الامريكية «أمريكانا»، في السطر الأول عن اسم «روتشيلد»:

«عائلة من رجال البنوك الأوروبيين الذين اشتهروا بثرائهم الاسطورى!»

وبعد بضعة أسطر يصف فيها الباحث كيف بدأوا نشاطهم المالى في القرن التاسع عشر، يقول عن الأب، موسس العائلة:

«ماير أميتشل روتشيلد، هو المؤسس لهذه الأسرة «الحاكمة» - ليس هناك خطأ في الترجمة! - ولد في فرانكفورت بألمانيا في ٢٣ فبراير عام ١٧٤٤، ثم بدأ عمله في «الجيتو» - حارة اليهود - في نفس المدينة عام ١٧٦٠ - أى وهو في السادسة عشرة من عمره - وفي النهاية، أصبح ماير هو المستشار المالى للنبيل الألمانى «هيس كاسل»... ثم توفي في ١٩ سبتمبر عام ١٨١٢!»

إما دائرة المعارف «ميريت»، فكانت أكثر تحديداً، إذ تقول:

«بدأ ماير أميتشل روتشلد حياته في فرانكفورت بافتتاح «محل» للصرافة، واستطاع ان يتقرب من الحكام، وان يقرضهم ما يحتاجونه من مال، حتى اذا مات، ترك لابنائه الخمسة ثروة طائلة!»

مات ماير في بداية العقد الثاني من القرن الثامن عشر، كي يشرع ابناؤه على الفور، في تأسيس مؤسسة مالية لها فروع في أهم المراكز المؤثرة في أوروبا في ذلك الوقت... ولقد بقى الولدان الكبيران «اميتشل» و«سليمان» في فرانكفورت التى كانت بلاشك تمثل المركز الرئيسى... أما «ناثان» وهو الابن الثالث، فلقد رحل الى لندن عاصمة الامبراطورية البريطانية كى يؤسس فيها فرع إنجلترا، ورحل «كارل» الابن الرابع، إلى نابولى في ايطاليا التى كانت في ذلك الوقت مقسمة إلى امارات متطاحنة، وكانت نابولى واحدة من أقوى تلك الإمارات وأكثرها ثراء... أما الابن الخامس «جيمس» فلقد أسس الفرع الفرنسى في باريس!!

وتقول الأمريكانا، انه أثناء الحروب «النابوليونية» التى شملت كل أوروبا ووصلت الى موسكو، أثرت العائلة ثراء لايمكن حصره، كما كانت مسيطرة سيطرة كاملة على معدلات النقص أو الزيادة في مالية هذه الدولة أو تلك... وفي عام ١٨١٥، استطاع «ناثان» ـ المسئول عن فرع انجلترا ـ بمعلومات مبكرة، أن يعرف بهزيمة نابليون في معركة «واترلو»... فما كان منه الا أن طرح

كل سندات الحكومة البريطانية التى تملكها مؤسسة روتشيلد في السوق، ولأن الناس يعرفون قيمة بنك روتشيلد وقوته ودقة معلوماته، فلقد اندفعوا جميعاً، وقد أصابهم الهلع، إلى بيع ما كانوا يملكونه من هذه السندات... وكانت النتيجة بالطبع، أن انخفضت أسعار السندات انخفاضاً مخيفاً، حتى إذا ماوصلت إلى الحد الأدنى، نزل ناثان ماير روتشيلد إلى السوق، كى يشترى السندات المطروحة!!

ويكاد المرء أن يلهث وهو يقرأ مثل هذه الأساليب والقصص... ذلك أن خبر انتصار الجيش البريطاني في «واترلو» لو كان قد وصل الى لندن، لارتفعت بطبيعة الحال أسعار السندات ارتفاعاً جنونيا، ولما جنى «ناثان ماير روتشيلد» من وراء هذه الصفقة، أو اللعبة بمعنى أصح تلك الثروة الأسطورية!!

ونصبح أمام سؤال هام، هو:

كيف عرف ناثان في ذلك الوقت المبكر - وقبل الآخرين - بانتصار الانجليز؟!

ليس هناك سوى جواب واحد لاثانى له، وهو: التجسس!

ونحن هنا لانستنتج أو نولد المعاني... ذلك أن دائرة المعارف «ميريت»، تقول في معرض حديثها عن العلاقة بين الاخوة روتشيلد بعد وفاة العميد «ماير»، وتفرقهم في العواصم الاوروبية: «أن العلاقة بين الاخوة روتشيلد، ووسائل الاتصال بينهم، والرسائل، وانتقال المعلومات من عاصمة إلى أخرى... كانت

أســرع في التــدفق، وأدق وأقــوى من الاتصـــالات بين الملوك والاباطرةوالأمراء المسيطرين على تلك الممالك والامبراطوريات!»

إن المعنى هنا واضح لالبس فـيـه ولاغـمـوض... وإذا كـان الباحث الذى كتب قصة روتشيلد قد توصل الى هذا، فهو لم يتوصل إليه استنتاجاً، فليست هذه مهمة دوائر المعارف، ولكنه بالقطع وصل اليه بناء على معلومات توفرت لديه!!

وعلى كل... فلم لاننظر إلى القصة حسب تسلسل وقوعها؟!

إن معركة «واترلو» الشهيرة هذه، وقعت بين نابوليون بونابرت من ناحيةوبين جيش الأمبراطورية البريطانيةبقيادة ولينجتون من ناحية أخرى قرب قرية تحمل نفس الاسم - ووتر لو - في بلجيكا، وهى قرية تبعد عن بروكسل العاصمة بحوالي خمسة عشر ميلا... وبذا، تكون المعركة بعيدة عن لندن بالفعل حيث يعيش «ناثان»... وكـانت أسـرع وسـائل المواصـلات في ذلك العصـر هى الخيل، أوالسفن عبر بحر الشمـال... فكيف نقل جواسيس آل روتشيلد نبأ انتصار البريطانيين في وقت يسمح لناثان بطرح سنداته في السوق، ثم الانتظار حتى ينخفض السعر، ثم جمعها مرة أخرى؟!

إن مثل هذا الطرح والجمع يحتاجان بطبيعة الحال إلى وقت. وإذا كانت العلاقة بين الاخوة وتدفق المعلومات من أحدهم إلى الأخر بسرعة، فلقد ساعد وجود أحدهم في فرنسا، على نقل المعلومة مبكراً وبزمن كاف إلى لندن... و... و... والاحتمالات في هذه الصدد كثيرة ومتعددة، لعل آخرها هو الظن بأنه كانت هناك

أيد خفية تلعب في الظلام من أجل هزيمة نابليون، والتى ما أن علمت بشائرها، حتى طيروا النبأ لمن يهمه الأمر في لندن كي يلعب اللعبة المتفق عليها سلفاً!!

بل أن تساؤلاتنا في واقع الأمر لاتقف عند هذا الحد... وإذا كانت دوائر المعارف، وكل الكتب التى تناولت آل روتشيلد تؤكد أن كلا من الاخوة الخمسة كان - حيث كان في هذه الدولة أو تلك - مقربا من الحاكم أو الأمير أو الأمبراطور، فمن الطبيعي أن يقوم باقراضه مايحتاج إليه من مال لتمويل الحرب أو للاستمرار فيها... وهذا يعنى، والأمر كذلك، أن تتوافر لديهم معلومات كافية عن قوة هذا أو ذاك، أو استعدادت هذا أو ذاك، وإذا نحن أمام حقيقة بالغة الغرابة، وهي: أن كل هذه الأطراف كانت متحاربة حقاً... لكن آل روتشيلد كانوا يحاربون الجميع!!!

فهل من الممكن أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه، أو يحققوا ماحققوه من ثروات وانتصارات، دون أن يكون «التجسس» هو العنصر الحاسم والفعال في الأمر كله ؟!!

إن العودة هنا إلى بروتوكولات حكماء صهيون، التى اكتشفت بعد ذلك بعشرات السنين، والتى ينكرها اليهود انكاراً تاماً، ويقولون إنها دست عليهم، تبدو لنا ضرورية... ذلك أننا سوف نسلم بأنها دست عليهم بالفعل، وإنها ليست من وضع حكماء بنى اسرائيل... ولكن، ماذا نقول - كما قال هنرى فورد في بداية القرن العشرين - عن ذلك التطابق الغريب، بين ماوضع في

البروتوكولات، وما تم بالفعل عبر التاريخ... بل أكثر من ذلك، ان قراءة سريعة للبروتوكولات، تكشف لنا عن حقيقة ملفتة للنظر، وهي أنهـا لم توضـع في عـام ١٨٩٧ عندمـا ضـبطت في بازل بسويسرا، بل وضعت قبل ذلك بزمن طويل، وان تنفيذ ماجاء فيها كان قائما من عشرات السنين!

يؤكد هذا ماجاء في البروتوكول الخامس ـ مثلا ـ الذى يقول:

«.... ... ... هذه الحكومات ـ المقصود هنا هي حكومات «الجوييم» أو الأغيار أو كل من ليس يهوديا مهما كانت ديانته ـ مصيرها إلي الاضمحلال، سواء قضت علي نفسها بالانتفاضات الآكلة بعضها البعض من الداخل ـ وهو يعني الثورات ـ أو «جرها» إلي الوقوع فى براثن عدو خارجي، فإذا بها عاجزة عن حماية نفسها، وهنا... سوف تقع فى قبضة يدنا، وحينئذ تأتي سلطة رأس المال!!»

هل هناك ماهو أشد وضوحاً من هذا ؟!

وهل من الممكن أن تتحقق أى من هذه الخطوات دون تجسس؟!

وعلى كل...أن قصة آل روتشيلد، تؤكد بما لايدع مجالاً للشك، أن أي نشاط اقتصادى، يستلزم بالضرورة نشاطاً سياسياً موازيا ـ على الأقل لحمايته! ـ ومادام النشاط السياسى قائم، فإن التجسس بالضرورة ملح!!

يقول هنرى فورد في كتابه «اليهودى العالمى»:

«... ... ... ومن المعروف ان ثروات اليهود بشكل عام، جمعت في أوقات الحرب، وكانت أول مضاربة لآل روتشيلد بلغت قيمتها عشرين مليوناً من الدولارات ـ كان هذا الرقم في أوائل القرن مبلغاً مهولاً ـ من الأموال التى دفعت للقوات التى حاربت المستعمرات الأمريكية!»

وتقول الأمريكانا: «إنه في الوقت الذى ربح فيه ناثان ماير روتشيلد كل هذه الملايين من صفقة السندات البريطانية، كانت الفروع الأخرى في حالة نشاط دؤوب في القارة الأوربية... فسرعان ما استطاع فرع باريس أن يقيم علاقات قوية وجيدة مع الحكام الذين جاءوا بعد نابليون ـ !! ـ كما غادر سليمان فرانكفورت بالمانيا، إلى مركز جديد من مراكز المال في ذلك الوقت، وهو «فيينا» عاصمة الامبراطورية النمساوية... ليس هذا فقط، بل إن سليمان أصبح بعد وقت قصير ـ كذا ! ـ الشخصية «المفتاح» بالنسبة للأمور المالية لحكومة «الهابسبورج» وهى العائلة المالكة النمسوية... وإذا كان «كارل» قد أصبح أقوى شخصية بنكية في ايطاليا كلها... فما هى الا سنوات قليلة، حتى أصبح الأخوة الخمسة من نبلاء النمسا!!»

كان الهدف بالقطع، هو قبولهم كيهود في المجتمعات الأوربية التى كانت تحرم عليهم الكثير من مناصب الدولة، أو الولوج إلى الطبقة الأرستقراطية ـ رغم قربهم الشديد منها ـ والذى لاشك فيه أن الحق معهم تماماً، فالتعصب ضد اليهودية كدين، أمر مرفوض بكل المعانى... ولكن يبقى أمامنا سؤال:

هل كان الهدف هو قبولهم في المجتمعات الإنسانية كأعضاء صالحين فيها فقط، مما لايمكن لأحد أن ينكره عليهم، أم أن وراء هذا، كان ثمة أهداف أخرى؟!

... ...

... ...

إن أحداً لا يستطيع أن ينكر، أن آل روتشيلد كانوا من الجسارة بحيث أثاروا الاعجاب حقاً، وذلك عندما مولوا المشروعات الصناعية الوليدة في بداية عصر البخار... لقد كانت الحضارة الصناعية، في النصف الثانى من القرن الماضى، لاتزال وليدة، وكان عصر البخار يخطو خطواته الأولى، والمغامرة بتمويل المشروعات الصناعية الجديدة، كانت تحتاج إلى بعد نظر... ولقد كان من أهم المشروعات التى مولوها، هى مد الخطوط الحديدية - قمة التكنولوجيا في ذلك الوقت - في النمسا وفي فرنسا... أما في بريطانيا العظمى، فلقد كانت القصة تأخذ مساراً آخر!

• • •

في منتصف القرن التاسع عشر كانت الصورة قد بدأت تتغير، لا في بريطانيا وحدها، وإنما في العالم كله... فالصراع بين الإمبراطوريات من أجل المستعمرات في آسيا وافريقيا على وجه التحديد، كان قد احتدم بالفعل... كانت هناك بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا، كما كانت هناك الامبراطورية التركية التى - باسم الدين - جثمت على صدر الدول العربية وجزء من

البلقان كى تغيبها جميعًا في متاهات الجهل والتخلف لقرون عدة، وكانت ـ في نفس الوقت ـ قد بدأت في التحلل والاضمحلال مما جعل الأوربيين يطلقون عليها فيما بعد «رجل أوربا المريض»، وبدأوا في الاستعداد ـ منذ أواخر القرن التاسع عشر ـ في تقسيم تركتها فيما بينهم!

أما بالنسبة لآل روتشيلد، فما أن حل عام ١٨٥٠ حتى كان ثلاثة من أبناء ماير قد توفوا... وكان لابد من اعادة ترتيب البيت من جديد... وهكذا، اشتهر من أحفاد ماير في تلك الفترة: ليونيل في لندن،والفونس في باريس، واميتشل في فيينا!

غير أنهم لم يكونوا الآن وحدهم، ففى نفس الوقت كان واحد من أقرب وزراء الخليفة التركى في الاستانة يهودى، كما ظهر يهودى آخر في عاصمة الامبراطورية البريطانية، كان له ـ دون شك ـ تأثير كبير على مجريات الأحداث... ذلك هو: «بنيامين درزائيللى» رئيس الوزراء البريطانى الأشهر!

... ...

... ...

ولد دزرائيللى في لندن عام ١٨٠٤، وهو يهودى الأصل، هاجر جده ـ وكان اسمه بنيامين أيضا ـ من مستعمرة لليهود قرب فينيسيا بايطاليا، إلى انجلترا في عام ١٧٤٨، ولقد ولد له ولد اسمه اسحق، الذى تزوج من ماريا بيسيفي، المنحدرة من سلالة يهودية ايطالية... وكان لاسحق أربعة أبناء وبنت واحدة... وفي

عام ١٨١٧هجر اسحق الديانة اليهودية واعتنق المسيحية في الكنيسة الانجليكية هو وابنته وثلاثة من أبنائه، كان منهم بنيامين الذى لم يكن عمره قد تجاوز الثالثة عشرة، والذى أصبح، مع حلول منتصف القرن، واحداً من ألمع الكتاب البريطانيين، ونجماً ساطعاً من نجوم مجلس العموم البريطانى، بعد أن أشرف على بناء حزب المحافظين الجديد.

وبطبيعة الحال، فلقد تقرب دزرائيللى من الملكة فيكتوريا، وحاز اعجابها وثقتها عندما أضاف - وهو رئيس وزراء - إلى ألقابها لقب «امبراطورة الهند»، فمنحته وساماً، وأصبح أول «ايرل» لمقاطعة بيكونسفيلد!!

ومهما كان الأمر، فالذى يعنينا هنا، هو ذلك التزامن الغريب بين وصول دزرائيللى - المسيحى !!! - إلى رئاسة الحكومة البريطانية، في نفس الوقت، الذى أفلح فيه «ليونيل روتشيلد» بعد صراع طويل، من دخول مجلس العموم البريطانى، وأصبح أول يهودى يمثل الشعب البريطانى... ولثانى مرة تولى دزرائيللى الحكومة البريطانية في عام ١٨٧٤، وفي عام ١٨٧٥ اقرض ليونيل روتشيلد الحكومة البريطانية من المال، ما استطاعت به أن تستعيد سيطرتها على قناة السويس كى تؤمن مواصلاتها الى الهند!

بعد عشر سنوات، أى في عام ١٨٨٥ أصبح ناثان، ابن ليونيل، أول نبيل بريطانى يهودى!

وفي عـام ١٩١٩ اسـتطاع ليـونيل ـ ابن ناثان، وثانـى : بـيل بريطاني في العائلة ـ أن ينتزع وعد بلفور بانشاء وطن قومى لليهود في فلسطين!

بينما كان ابن عمه النونس ـ ادموند ـ يضع الأسس الأولى، في باريس، لتوطين اليهود في فلسطين.

• • •

ثـم...

ثم يبدو وكأنه قد آن الأوان لأن نمتطى آلة الزمن كى تعود بنا مـرة أخرى الى حيث نعيش في أواخر القرن العشـرين... لقـد تطور الأمر كثيرا، وبدلاً من الخيل والسفن الشراعية، أصـبحت الأنباء بل الحروب وصـور المعارك، تنتـقل في نفس اللحظة عبـر الأثيـر، كى تبث الى كل مكان في الدنيـا، أصبحت هناك آلات ومـعـدات وابتكارات ترصـد وتصـور وتسـجل في النور أو في الظلام، وتصنع للإنسـان مـا لم يخطر على باله في ذلك الزمن... وفي أقل من مائة عـام، يبدو وكأننا انتقلنا مـن كوكب الى كوكب آخـر، أو... كـأن كـوكـبنا قـد قطع من الزمـان آلاف السنين... والحكايات كثـيرة، والموضـوعات بلا حـصـر، والسنوات الخـمس الأخيرة كانت حـافلة... غير أن سؤالاً يلح على الذهن: هل حقـاً انتهى التجسس، بانتهاء الحرب الباردة؟!

الجاسوسية أبداً

عندمــا ألقت السلطات المصــرية القـبض على الجـاســوس الاسرائيلى صـبحى مصراتى وابنته فائقة، كانت دهشة البعض شديدة، وكـانت صـدمـة البـعض أشـد... وثمـة فـريق ثالث راح يرقص حـول القـدر الموضـوع فـوق النار وهـو يزغـرد بصيحـات النصر، وكأن ماحدث كان اكتشافاً!!

ولقـد كـان السـؤال الذى طرح نـفسـه، أو طرحـه البعض في دهشة، هو: لماذا التجسس وبيننا وبين اسرائيل معاهدة سلام؟!

وفي حـقيقة الأمـر، ومن وجـهة نظر خاصـة، فلقد كان البيان الذى أصدرته الحكومة المصرية حول هذا الموضوع مقتضباً... بل إنى لا أغالى إن قلت، إنه كان بيانا غامضاً تسبب في الكثير من ردود الأفـعـال التى حـدثت بعـد ذلك، وهـى التى تـهـمنا فـي هذا الحديث... فسـرعان مـا اجتـاحت مصـر عاصـفـة من الاشـاعات والتكهنات والأقـاويل ـ وهذا أمـر طبـيـعى دون شك، بل هو دليل

على حيوية المجتمع ـ غير أن الأمر امتد من مصر الى الدول العربية، فتضاربت الأقوال، وتزاحمت الهمسات في الآذان، وسرت الاشاعات، وظهرت الغمزات واللمزات عن علاقة فائقة مصراتي بمسؤولين مصريين تارة، وأبناء مسؤولين تارة أخرى، وتصاعد الأمر الى حد القول بأن الجاسوسة الاسرائيلية مصابة بالإيدز، الذى انتقل بالضرورة الى من كانوا على علاقة بها... وكالعادة، استغلت بعض الصحف العربية الأمر كى تزايد على مصر سياسياً، وتطاول بعض ممن يمسكون الأقلام بأصابع أقدامهم على وزراء «مصريين» وانفجرت أزمة حقيقية على صفحات الصحف، وانبرت في مصر أقلام تهاجم من يهاجم، وانبرت هناك أقلام تدافع وأخرى تلوم، وصدرت بيانات، ونشرت تفسيرات واعتذارات... و... وكالعادة أيضا، نسينا الموضوع الرئيسى، وأمسك كل منا بخناق الآخر، وجلست اسرائيل، وهى الجاني، في مقاعد المتفرجين!!!

ولابد لنا من الاعتراف، بأن هذه الظاهرة، تبدو وكأنها آفة عربية لاسبيل الى الخلاص منها... ولقد هدأ الأمر لأسابيع قليلة، ثم... ثم عاد فانفجر مرة أخرى عندما اتخذت الحكومة المصرية قراراً بالافراج عن الجاسوس وابنته، وترحيلهما الى اسرائيل!!

ومرة أخرى... جاء البيان الرسمى المصرى غامضاً، ومبتسراً، مما دفع بعض محترفي الرقص في حفلات الزار السياسى، الى دق الصاجات، والحديث عن ضعف الحكومة، وخضوعها للضغط الاسرائيلى، أو للأمر الأمريكى... و... وكعادة

اسرائيل ـ في مثل هذه المناسبات ـ استغلت كل هذا لاذكاء النار أكثر، فأقامت احتفالاً لاستقبال جواسيسها استقبال الأبطال وما هم بأبطال ولا يحزنون... ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل بلغ بها الصلف أن أعلنت عن القبض على جاسوس مصرى في اسرائيل!!

الى هنا، ويمكننا التوقف كى نحلل ونستنتج ونستقرىء التاريخ والأحداث... و... ولكن كل هذا سوف يجرفنا بعيداً عن الموضوع، وعن السؤال الذى ظل جاثماً فوق عقول البعض بعدما أنتهت الضجة وخفت الضجيج... عاد السؤال مرة أخرى يلح: لماذا التجسس، بل وكيف، وبيننا وبين اسرائيل معاهدة سلام؟!

• • •

وقبل أن نتعجل الاجابة على السؤال، فإن علينا أن نتنبه بداية، الى أن هذه التساؤلات قد طفت على السطح، وفرضت نفسها فرضاً على العالم كله، منذ تراجيديا السقوط المدوى للتجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتى، وتفكك الكتلة الشرقية، وما استتبع ذلك من أحداث واستنتاجات كان من بينها ـ على سبيل المثال ـ أن حرب الجواسيس قد انتهت بانتهاء الحرب الباردة... وكان آخر ما نشر حول هذا الموضوع ـ منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع ـ في إحدى صحفنا الكبرى، التى استقت مادتها بالقطع من وكالات أنباء موثوق بها، أو مراكز دراسات مشهود لها بالكفاءة، تحت عنوان شديد الجاذبية يقول: «بدأ شهر

العسل بين المخابرات الأمريكية والروسية!»

كان العنوان مثيراً وجذاباً دون أدنى شك... بل إن السطور الأولى للموضوع كانت تتحدث عن التعاون المشترك بين الجهازين العتيدين: «بدلاً من تجسس أحدهما على الآخر!!»... وكانت مناسبة الحديث عن هذا الموضوع، هي الزيارة التي قام بها السيد «روبرت جيتس» مدير وكالة المخابرات المركزية الامريكية «سي. آي. ايه» لموسكو، والتي التقى فيها بالسيد «يفجيني بيريماكوف» مدير المخابرات الروسية التي لازالت تحمل اسم «كي. جي. بي»، والجنرال «فيدور لاريجين» مدير المخابرات العسكرية الروسية، ومع الرئيس بوريس يلتسين شخصيا... وهي زيارة تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ العلاقات بين البلدين.

غير أننا نفاجأ - في السطور التالية - أن التعاون المزمع قيامه بين الجهازين، سيكون في مقاومة تهريب المخدرات، وهو تعاون كان قد اتفق عليه منذ سنوات!!، لكنه رؤى تطويره كي يشمل: محاربة الجريمة المنظمة، والارهاب... ثم مكافحة انتشار الأسلحة النووية!

ويصرف النظر عن البند الأخير، وهو انتشار الأسلحة النووية، وما له من طابع خاص، فإن البنود الأخرى تبدو عادية للغاية، وكان من الممكن أن توجد قبل انهيار الاتحاد السوفيتي.

فما هي الحكاية إذن؟!

هل هو الأمل في الكف عن الصراع المحتدم في العالم؟!

أم هو الأمل في وجود سلام حقيقي صافٍ من الشوائب؟!

الغريب في الأمر، أنه منذ بضعة أشهر، طيرت وكالات الأنباء تصريحا للسيد بيريماكوف مدير المخابرات الروسية يقول فيه: ان بلاده على استعداد لوقف عمليات التجسس مع الدول التى تتعهد بعدم التجسس على روسيا!!... وبصرف النظر عن تفاهة هذا التصريح، مما يدفع الى الظن بأنه لم يصدر عن الرجل المسؤول عن واحد من أعتى أجهزة المخابرات في التاريخ... إلا أن أحداً لم يستطع أن يعرف ـ في اللقاء الأخير مع مدير الـ سى. آى. ايه إن كان هذا الاقتراح قد نوقش أصلاً أم لا... واذا كانت المخابرات الروسية قد أعلنت أنها سوف تنشر بعضاً من عمليات التجسس التى قامت بها في كتب على غرار مايحدث في الغرب... إلا أن هذا الخبر قد أوضح أن الرئيس يلتسين قد أكد لمدير المخابرات الأمريكية أن: «هناك حدوداً لما يمكن للمخابرات الروسية أن تكشفه!!!»

فما معنى كل هذا؟!

إن له معنى واحداً فقط، هو أن عمليات التجسس مستمرة، ولسوف تظل مستمرة... وأن الكشف عن بعض العمليات، يعتبر من عاشر المستحيلات مهما تغيرت النظم أو سقطت لتحل محلها نظم أخرى مناقضة!!

... ...

... ...

ولابد أن يدفعنا هذا الى الالتفات نحو الماضى القريب، عندما اهتزت الدنيا فرحاً ودهشة لعودة ألمانيا الموحدة، وسقوط سور برلين الشهير... وبالرغم من المحاكمة التى كانت معقودة للسيد «هونيكر» الرئيس السابق لألمانيا الديمقراطية، والذى افرج عنه بعدها لأسباب صحية - !!! - فان أحد بنود الوحدة بين ألمانيا الشرقية والغربية، ينص على عدم فتح بعض الملفات الخاصة بجهاز المخابرات في ألمانيا الشرقية، والذى كان يعتبر واحداً من أعظم أجهزة المخابرات في العالم... إلا بعد مرور خمس سنوات كاملة!!

إذن... فحتى عندما التأمت الدولة مرة أخرى، وهدم سور برلين، وتوحدت ألمانيا وتحقق الحلم، فإن هناك قيوداً، وسدوداً لايمكن تخطيها إلا بعد مرور فترة كافية!!

• • •

وعلى هذا... فإننا نرى أن هذين المثالين يتعرضان لحالتين قد لاتصلحان لأن تكون كل منهما مثلاً أو قاعدة... ذلك إننا اذا ما قلنا إن هناك سلاماً بين مصر واسرائيل، فهو سلام - دون أدنى شك - ينقصه شمول السلام في المنطقة كلها... فلازالت اسرائيل تحتل أراضى دول عربية أخرى، وتمارس في الأرض المحتلة تعسفاً وقهراً تتحدث بهماوكالات الأنباء في كل يوم... وثمة مفاوضات صعبة تجرى على صعيد دولى في جولات وصلت حتى الآن الى ثماني جولات... بمعنى أن هناك ما قد يلزم مصر

واسرائيل، أن يكون لكل منهما عيون في الدولة الأخرى رغم المعاهدة المعقودة بينهما!

ونفس الشيء بالنسبة لروسيا الاتحادية والولايات المتحدة الامريكية... فمن غير المنطقى أن يزول ركام ثلاثة أرباع القرن منذ قيام الاتحاد السوفيتى عام ١٩١٧ وحتى اليوم، في سنوات قليلة كى يصبح السلام قائماً ومعترفاً به... ولابد إذن من مرحلة انتقالية، بل لابد من تجارب يخوضها الطرفان معاً، حتى يصبح السلام سلاماً حقيقياً!!

لذلك، فلابد - كى يتضح لنا الأمر - أن نرتد الى الوراء ثلاثين عاماً!

أن نعود الى قلب عصر الحرب الباردة، والتى كانت محتدمة وفي أوجها... كى نلتقط مثلاً يعز على المناقشة!!

• • •

قبل الخوض في هذا الموضوع، علينا أن نعترف، أن اسرائيل منذ إعلان قيامها في ١٥ مايو ١٩٤٨، استطاعت أن تستغل ما فعله النازيون في معسكرات الاعتقال، لصالحها وحدها... بالرغم من أن النازيين لم يضطهدوا اليهود وحدهم في هذه المعسكرات، بل كان اضطهادهم لكل من كان يعارض الحزب النازى من ناحية، ولكل من ليس آريا من ناحية أخرى!

وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة ملفتة للنظر.

وهى أن اليهود، بطول التاريخ وعرضه، كانوا يبدون، اذا ما تملكوا القوة وتمكنوا، أكثر شراسة مع الآخرين - أيا من كانوا - من النازيين أنفسهم... وليس أدل على ذلك من تلك المذابح التى ارتكبت في فلسطين كمذبحة دير ياسين قبل قيام الدولة اليهودية، ثم مذبحة صبرا وشاتيلا التى وقعت في الثمانينات... فاذا ما دارت عليهم الدائرة، ارتدوا فراء الحملان الوديعة، وسلكوا دروبا غير دروب القوة!!

من ذلك مثلاً... إنه منذ قيام دولة اسرائيل، ووقوف الولايات المتحدة الامريكية - بكل سطوتها وقوتها وأجهزتها - الى جانب اسرائيل... والاسرائيليون يطاردون هؤلاء الذين ساموهم في ألمانيا صنوفاً من العذاب إبان الحكم النازى... ولقد استطاع عدد لا بأس به من هؤلاء النازيين، أن يهربوا من ألمانيا كى يتفرقوا ويختفوا في جميع أنحاء العالم... ولعل أشهر هؤلاء جميعا، هو الرجل الذى كان مسؤولاً عن واحد من أفظع معسكرات الاعتقال النازى، والذى عرف باسم معسكر «أوشفيتز»، وكان اسم هذا الرجل هو: «ادولف ايخمان»!

كان ايخمان، عندما لاحت بوادر الهزيمة، قد استطاع الهرب من ألمانيا الى النمسا، ومن النمسا الى ايطاليا... وهناك، لم يكن من الصعب عليه أن يستخرج جواز سفر ايطالياً باسم «ريكاردو كليمنت»، وأن يضع في خانة الجنسية أنه ايطالى من أصل ألمانى، وأنه مولود في بلدة «بولزانو»... أما في خانة المهنة، فلقد وضع كلمة «ميكانيكى»!

وهكذا استطاع أن يهاجر مع عائلته من ايطاليا الى أمريكا اللاتينية، وأن يستقر في الأرجنتين!

ومنذ قيام دولة اسرائيل، والاسرائيليون يبحثون عن ايخمان الذى بدا لهم وكأنه تبخر في الهواء... وفي كل أنحاء الدنيا، وفي كل دولة من دول العالم، لابد وأن تكون هناك جالية يهودية... ولابد، بالطبع، من تجنيد عدد لابأس به من العيون التى ترصد وتدقق وتفحص في سرية وصمت... ولقد استغرق البحث عن ايخمان عشر سنوات، الى أن جاءت أولى المعلومات عنه، عن طريق مسئول ألمانى!!

وفي كتاب «الموساد» الذى ألفه ثلاثة من الاسرائيليين هم: «دينيس ايزينبرج» و«يورى دان» و«ايلى لانداو»، وفي الفصل الخاص باختطاف ايخمان، يقول مؤلفو الكتاب:

«... ... ... كان ايخمان يعتد بنفسه اعتداداً كبيراً، خاصة في الطريقة السلسة التى كان ينظم بها عملياته... فلقد أظهرت محاكمات «نورنبرج» - وهى المحاكمات التى عقدت بعد الحرب العالمية الثانية لمحاكمة من تبقى من زعماء النازى بصفتهم مجرمي حرب - أنه كان يتباهى بالدور الذى لعبه في تصفية الملايين من اليهود، والذى تضمن دوراً هاماً في توسيع نطاق أوشفيتز».

ثم يضيفون بعد ذلك، أنه في عام ١٩٥٨، جاءت معلومات الى النائب العام في ألمانيا الغربية وهو دكتور «فريتز بوير»، من

مرشد يهودى «ضرير» - !! - يعيش في الأرجنتين، عن شاب يتودد الى ابنته، ويتحدث في اعتزاز وفخر عن الدور الذى قام به والده في الحرب العالمية الثانية... وكان هناك شك في أن هذا الشاب، قد يكون «نيكولاس» ابن ايخمان... وأن دكتور بوير قد أبلغ الاسرائيليين بالأمر، وبذلك بدأت مطاردة الفريسة!

غير أن «ريتشارد ديكون» - واسمه الحقيقى ماك كورميك - مؤلف كتاب «الخدمة السرية الاسرائيلية»، يورد في الفصل الخاص باختطاف ايخمان، معلومات أوفر حول هذا الأمر... فهو يوضح لنا أن دكتور «فريتز بوير» هو يهودى ألماني كان يعيش في مدينة شتوتجارت قبل الحرب العالمية الثانية... وعندما استولى الحزب النازى على الحكم في ألمانيا في أوائل الثلاثينات من هذا القرن، ألقى القبض عليه وسجن لمدة عام... لكنه استطاع بعد ذلك أن يهرب الى الدانيمارك، وفي عام ١٩٤٠ - أى بعد بداية الحرب بعام واحد - اجتاحت الجيوش الألمانية الدانيمارك، وقبض النازيون مرة أخرى على دكتور بوير الذى سجن هذه المرة لمدة ثلاثة أعوام... ولذلك، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وعندما عاد الرجل الى ألمانيا مرة أخرى... كان كل همه، هو القبض على هؤلاء الذين قبضوا عليه وزجوا به في السجون!

وعلى هذا... فعندما وصلت إليه معلومات - وكان قد وصل الى منصب النائب العام - عن رجل يدعى «ريكاردو كليمنت» يعيش في «بيونس ايريس» عاصمة الأرجنتين، وأن هذا الرجل قد يكون ادولف ايخمان، فلقد بادر - دون أن يفصح عن أسماء مصادره -

بابلاغ وزارة الخارجية الاسرائيلية، التى قامت بدورها، بإبلاغ «ايسرهارئيل» مدير الموساد في ذلك الوقت، شخصياً!!

كان هذا عام ١٩٥٨، وسرعان ما طار عدد من رجال الموساد الى «بيونس ايريس» لمراقبة السيد كليمنت هذا، لكنهم عندما وصلوا، كان العصفور قد طار من القفص، واختفي مرة أخرى!!

ولابد لنا أن ننبه هنا، الى الهدف الذى من أجله نورد هذه القصة... وهو أن المخابرات الاسرائيلية، بدأت على الفور، في ممارسة نشاطها السرى في الأرجنتين دون علم الحكومة أو حتى المخابرات الأرجنتينية، وهذا النشاط ليس سوى تجسسٍ رغم ما بين البلدين من علاقات حميمة!

وعلى كل حال. فلقد كان اختفاء ايخمان أمراً طبيعيا، فالرجل دون شك كان مدرباً، ولابد أنه شعر، بشكل أو بآخر، أن ثمة من يتعقبه أو يراقبه أو يقتفي أثره، ويرصد حركاته... أو، لابد أنه اشتم رائحة ما جعلته يستشعر الخطر، فما كان منه إلا أن رحل من بيونس ايريس كلها... وهكذا بدأت رحلة البحث عنه من جديد.

ولمدة عام كامل كان الاسرائيليون يواصلون البحث عن ايخمان، حتى جاءت الأنباء بأن هناك رجلاً يحتمل أن يكون ايخمان، يعيش في بلدة صغيرة اسمها «سان فرناندو»، ويعمل في وظيفة متواضعة هى مدير إحدى المصابغ، ولقد كانت أوصاف ايخمان تنطبق عليه حقاً، لكن الاسرائيليين لم يكونوا

يملكون دليلاً دامغاً على أن هذا الرجل الذى يعيش حياة هادئة ومنتظمة، هو ادولف ايخمان، إنهم لايريدون أحداً غيره، ثم أن اختطاف شخص آخر غير ايخمان، قد يثير من الأزمات ما هم في غنى عنه... الى أن كان يوم من أيام الربيع، وبالتحديد، في يوم ٢١ مارس عام ١٩٦٠.

ففى مغرب هذا اليوم، شوهد هذا الرجل وهو عائد من عمله الى بيته... وفي نفس الموعد تماماً توقف الاتوبيس الذى كان يستقله يومياً عند المحطة القريبة من البيت، وهبط صاحبنا كالعادة، غير أنه في تلك الليلة، كان يحمل في يده باقة من الزهور، ولقد يبدو الأمر طبيعيا أن يعود رجل الى بيته يحمل باقة من الزهور، غير أن الملفت للنظر، أن زوجته كانت - على غير العادة - في استقباله عند سلم البيت الخارجى... وما هى إلا ساعة، حتى بدا للمراقبين أن ثمة احتفالاً صغيراً يقام داخل البيت... في تلك اللحظات بالذات، تاكد الجميع أن هذا الرجل، هو ادولف ايخمان ولا أحد غيره... ذلك أن يوم ٢١ مارس كان يوم عيد زواج ادولف ايخمان من زوجته!!

وبدون الدخول في الكثير من التفاصيل، فلقد طار «ايسرهارئيل» - مدير جهاز الموساد في ذلك الوقت - بنفسه الى الأرجنتين مع طاقم من رجاله المدربين... وفي يوم ٢٠ مايو - أى بعد شهرين - تم اختطاف ايخمان ساعة الغروب بعد مغادرته للاتوبيس الذى أقله من مقر عمله، كما تم ترحيله الى اسرائيل، بعد ذلك باسبوع، على احدى طائرات شركة العال الاسرائيلية...

كي يعلن بن جوريون، في الكنيست الاسرائيلى، أنه قد تم القبض على ايخمان، وأنه سيقدم للمحاكمة في اسرائيل!!

ولقد حوكم ايخمان بالطبع، وادين وحكم عليه بالاعدام شنقاً!

فهل كانت هناك حرب بين اسرائيل والأرجنتين؟!

بالقطع لا...

فكيف إذن تمت واحدة من أخطر عمليات الخدمة السرية على أرض دولة صديقة دون علمها؟!

يورد ريتشارد ديكون في كتابه «الخدمة السرية الاسرائيلية»، في مقدمة الفصل الخاص باختطاف ايخمان، تصريح لايسر هارئيل شخصياً يقول فيه:

«كان لابد لنا أن ننجز عملية ايخمان بأي ثمن، وأن نأخذه خارج الأرجنتين... ورغم أن هذا الأمر قد كلفنا الكثير من الخلافات الداخلية - أي داخل الموساد حيث كانت هناك آراء تعارض العملية خوفا من حدوث أزمة دولية، إلا أن ضميري كان، بكل المعاني، مستريحا تماماً ونحن نقوم بعملية سرية فى أرض دولة صديقة» !!!

• • •

وبعد...

قد يقول قائل، إن الأمر هنا يختلف، فلقد كان ايخمان مجرم حرب ادانته محكمة دولية، وإنه من أجل هذا كان لابد للأرجنتين

أن تغض النظر عن الأمر كله!

ونحن سوف نوافق على هذا الرأى دون أدنى قدر من التحفظ... ولكن:

ماذا عن التجسس بين اسرائيل والولايات المتحدة؟!

ماذا عن جاسوس اسرائيلى اسمه «جوناثان بولارد» قبض عليه في الولايات المتحدة متلبساً، وانفجرت قضيته في عام ١٩٨٥ وشغلت الرأى العام الامريكى، بل والأوربى، زمناً، والذى وجهت اليه، هو وزوجته، تهمة التخابر مع دولة أجنبية، وحكم عليه بعقوبة لازال يقضيها حتى اليوم في أحد سجون أمريكا؟!

التجسس بين الأصدقاء (١)

... ... لأننا سوف نعود الى نفس المرجع الذى تحدثنا عنه في الفصل السابق، ولأننا سوف نرجع الى نفس الكتاب، فإن من حق القارىء أن يعرف شيئاً عن الكاتب والكتاب معاً!!

ففى عام ١٩٧٩، صدر هذا الكتاب في لندن تحت عنوان «الخدمة السرية الاسرائيلية» لصحفي بريطانى هو «ريتشارد ديكون»... ولقد عمل السيد ديكون في مستهل حياته - أثناء الحرب العالمية الثانية - ضابطاً في مخابرات الأسطول البريطانى تحت قيادة «ايان فليمنج» - الكاتب البريطاني الذائع الصيت، والذي تخصص في كتابة قصص التجسس الشهيرة التي يقوم ببطولتها «جيمس بوند» أو العميل «٠٠٧» - والذى كان يشغل في ذلك الوقت، منصب مدير مخابرات الأسطول في المملكة المتحدة!

وما أن وضعت الحرب أوزارها، حتى عمل المستر ديكون كمحرر متجول لعدد من الصحف البريطانية، كان آخرها - حتى

صدور الكتاب - جريدة «الصنداى تايمز»، وتحت اسمه الحقيقى «دونالد ماك كورميك» أصدر عدداً من الكتب التى تبحث في شؤون الجاسوسية، لكنه لم يكتب قصصاً كما فعل رئيسه من قبل!

ولقد اكتسب كتابه هذا - الخدمة السرية الاسرائيلية - أهمية خاصة بالنسبة اليّ شخصياً على الأقل... لا لأنه يحوى حقائق أكثر من غيره، فالحقائق في مثل هذه الكتب نسبية، وهى في نفس الوقت، ورغم نسبيتها لاتوضع اعتباطاً، كما أن مثل هذه الكتب أيضا لاتصدر اعتباطاً... وانما لأنه صدر دون أن تصاحبه تلك «الزفة» الاعلامية التى تصاحب صدور مثل هذا النوع من الكتب عادة، سواء في بريطانيا أو الولايات المتحدة... وبالأخص اذا ما كان الكتاب صادراً عن اسرائيل!

في هذا الكتاب الذى يضم اثنتين وعشرين من عمليات الخدمة السرية الاسرائيلية، فصل بعنوان «حرب الأيام الستة»، يتعرض فيه المؤلف لحرب ١٩٦٧، والتى يعتبرها نموذجاً للحرب التى تعتمد أساساً على عمل أجهزة المخابرات!!

وعلى كل، فالذى يعنينا هنا، هى تلك الاشارة التى أوردها المؤلف، حول حاجة اسرائيل - بحلول عام ١٩٦٥ - الى التعاون مع اجهزة أخرى للمخابرات، خاصة فيما يختص بالأمور العسكرية... ولقد وجدت اسرائيل بعض التعاون من المخابرات البريطانية، وان كان هذا التعاون لم يستمر لأسباب أهمها ذلك

التسرب للمعلومات الذى كان يتدفق من المملكة المتحدة الى الاتحاد السوفيتى عن طريق العملاء السوفييت في المخابرات البريطانية، ثم إن اسرائيل كانت تعرف الكثير عن رجل المخابرات البريطانى «كيم فيلبى» بالذات، والذى كان يعمل لحساب الاتحاد السوفيتى ثم فر إليه، خاصة وإن زوجة فيلبى الأولى، كانت يهودية من فينيسيا!!

يقول المستر ديكون ان المساعدة الحقيقية التى وجدها الاسرائيليون في تلك السنوات، جاءت من فرنسا والولايات المتحدة!

وفيما يختص بالولايات المتحدة، فلقد حصلت اسرائيل على معاونة معينة من الـ «سى. آى. ايه» - أى المخابرات الامريكية - ولكن بشكل غير رسمى، وكان ذلك في عهد الرئيس الامريكى الراحل دوايت ايزنهاور.

غير أن السيد ديكون، يقول في صفحة ١٨٢ من الطبعة الأولى بالحرف: «إن التعاون بين المخابرات الاسرائيلية «الموساد» ووكالة المخابرات المركزية الامريكية، وصل الى حد أنه لم يكن في «تل أبيب» محطة للـ «سى. آى. ايه»، ولكن كان هناك مجرد ضابط اتصال في السفارة الامريكية، كان عليه أن يتعاون مع الموساد!»

ان هذا الكلام يبدو غريباً وغير مسبوق، لكن الرجل يؤكده بقوله، إن الشخصيات الرئيسية التى كانت وراء هذا الاتفاق

الغريب والفريد، هم:

«ايسـرهارئيل» أشـهـر من أشـرف على الموسـاد في تاريخ اسرائيل.

«افرايم افرون» الذى أصبح فيما بعد سفيراً لاسرائيل في واشنطن.

ثم «جيمس انجلتون» رئيس شعبة التجسس المضاد في الـ «سى. آى. ايه».

في ذلك العـام ـ ١٩٦٥ ـ وصل السيد انجلتـون الى تل أبيب لعدد من المهام، كان منها مساعدة الاسرائيليين على مواجهة ذلك التسرب للمعلومات من اسرائيل الى مصر من ناحية، ومن ناحية أخرى البحث عن امكانية لاغتيال جمال عبد الناصر!

ولكن... يبدو أن النقطة الثـانيـة كـانت هى الأولى بالرعـاية والاهتمام، ولما كـانت كل الدلائل والتقارير الموثوق بها، كانت تقول إن عبد الناصـر كان محبوباً من شعبه، وإنه كان قويا في أمته ـ هذا كـلام ديكون ـ فـإنه بدلاً من الاغتـيـال، لابد من البحث عن الأسلوب الأمـثل للتـخلص من الرجل... ولقـد تفـتق ذهن السـيد انجلتون عن ضـرورة شن حرب يهزم فيها الجيش المصرى هزيمة نكراء، كى يسقط بعدها عبد الناصر ولا تقوم له قائمة!!

وبناء عليه، فلقد بدأوا منذ ذلك التاريخ ـ منتصف ١٩٦٥ ـ في الاعداد لهذه الحرب التى تمت بعد عـامين بالتمـام والكمـال... ولذلك، فلقـد وضع ريتـشـارد ديكون، في صـدر هذا الفـصل،

تصـريحـا لموشى ديان، وزير الدفـاع الاسـرائيلى في ذلك الوقت قـال فيه:

«كل ما أستطيع أن أقوله ـ بخصوص حرب الأيام الستة ـ أن دور المخـابرات فيـها، لم يكن يقل بأى مـعنى من المعانى، عن دور السلاح الجوى وسلاح المدرعات!!»

... ...

... ...

كانت هذه مقدمة أراها ضرورية، قبل الحديث عن «التجسس» بين الأصـدقـاء، أو بين الدول التى أبرمت مـعـاهدات سـلام مع بعضـها البعض... ذلك أن مثل هذا الذى قـاله المستر ديكون عن العلاقة بين جهـازى الاسـتخبـار في اسرائيل والولايات المتحـدة، ليس غريبا فـحسب، بل ربما كان فريداً... وعلى كل فإن الذى لم يذكره السيد ديكون، إنه منوفاة المستر جيمس انجلتون، مهندس شن حرب ١٩٦٧، واسـرائيل تحتفل سنوياً بذكرى وفـاته، بينمـا في بلده ـ الولايات المتحدة ـ لاتكاد تجد أحداً يذكره!!

وبالرغم من هذا... فإنه بعد عشرين عـاماً من هذا الاتفـاق أو التعاون الحميم بين الدولتين، أى في عام ١٩٨٥، انفجرت قضية التجسس لحسـاب اسـرائيل في الولايات المتحدة، بطلها يهودى أمريكى يعمل في واحد من أجهـزة المعلومـات البالغـة السرية... ولقد أثارت هذه القضية الكثير من الضجيج هنا وهناك، ولازالت أثارها قـائمة حتى اليوم، تلقى بظلالها ـ مهمـا بدت الأمور فوق

السطح وردية - على العلاقات الامريكية الاسرائيلية... ومنذ ذلك التاريخ - ١٩٨٥ - عرفت هذه القضية، باسم قضية «بولارد»!

• • •

كان «جوناثان جى بولارد» مواطناً أمريكى، يهودى الديانة، وكان يعمل موظفاً مدنياً في وحدة خاصة بمكافحة الارهاب تابعة للاسطول الامريكى تعرف باسم «اتاك»... ويقول الصحفي الامريكى «وولف بليتشر» الذى تابع قضية بولارد وكان أول صحفي يلتقى به في السجن بعد القبض عليه، ثم تابع القضية وأصدر كتاباً يحمل عنوان «مساحة للكذب»... يقول إن بولارد كان مكروهاً في مكان عمله لصلفه وغروره وعجرفته، وكان رئيس «اتاك» واسمه «جيرى آجى» يشك في مثل هذا النوع من البشر، ويقول - بينه وبين نفسه - إن أمثال هذا البولارد يكذبون كثيراً حتى يضفوا على أنفسهم أهمية ليست لهم في واقع الأمر... ولقد اكتشف المستر «أجى» كذب بولارد بالفعل عندما كلفه بحل مشكلة بين أتاك وبين مؤسسة أخرى، وعندما عاد بولارد من الاجتماع، قص على رئيسه قصة بدت للرجل غير منطقية، لكنه لم يصارحه بذلك، بل فضل أن يتحقق من الأمر بنفسه، وعندما فعل، اكتشف أن كل كلمة قالها بولارد كانت كذباً صريحاً، وأن ما قصه عليه لم يكن سوى ضرب من الخيال!!

وهنا... يجب علينا أن نتوقف قليلاً: فإن منظمة لمكافحة الارهاب، هى منظمة أمنية في المقام الأول، أى هى نوع من أنواع

أو فرع من أفرع أجهزة المخابرات هنا أو هناك، وبناء عليه، فإن الدقة في نقل المعلومات أو كتابة التقارير، مسألة لاتخص فرداً، وإنما هى تمس أمن دولة... ولذلك، فإن السؤال يفرض نفسه علينا فرضا: لماذا لم يواجه آجى مرؤوسه بحقيقة كذبه؟!... بل أكثر من ذلك، لماذا لم يحاسبه على هذا الكذب الصريح؟!

ولسوف تزداد حيرتنا حقاً عندما نعلم أن السيد آجى، قال - ردا على أسئلة من هذا النوع - إنه كان يعتقد أن المسألة «بسيطة»، وإن بولارد أراد فقط أن «يتمنظر»!!

ويصبح علينا أن نبتلع هذا التبرير، لأننا أولاً لسنا أصحاب القضية، ولأننا ثانياً لانملك مناقشة الرجل، وإن كنا نملك ملكة التفكير والقدرة على التمحيص!

ولم تمض بضعة أسابيع، حتى اكتشف السيد آجى كذبة أخرى لبولارد، لكنه لم يفصله، ولم يوقع عليه أى نوع من أنواع الجزاءات، بل... بل إنه لم يواجهه!!... فلماذا؟!

ولسوف يظل السؤال معلقاً دون إجابة حاسمة... ذلك أن السيد «بليتشر» صاحب كتاب «مساحة للكذب» يحكى الكثير من التفاصيل عن علاقة آجى ببولارد الى أن يصل الى واقعة غريبة!

كان آجى يمر ذات يوم في قسم من الأقسام التى تتوافر فيها معلومات بالغة السرية عن مجموعة من النشاطات المشتركة بين الولايات المتحدة والدول الأخرى... ولقد لفت نظره أثناء مروره، كمية كبيرة من الملفات ذات الطابع الخاص، والتى يحمل كل منها

العبارة الشهيرة «سرى جداً»... وما أن قلب في هذه الملفات حتى اكتشف أنها جميعا كانت خاصة بالأسلحة الحديثة التى تم تزويد الدول العربية بها!!

كانت دهشة الرجل شديدة - أو هكذا قال للصحفي بليتشرا - وكان انزعاجه أشد، وعندما سأل الموظف المختص عن سبب تواجد هذه الملفات لديه، جاءته الاجابة كالصدمة، لقد جاءت بناء على طلب السيد جوناثان بولارد!!

بدا الأمر للسيد آجى غريباً، فليس لدى بولارد أية علاقة من قريب أو من بعيد بتسليح الدول العربية... ولكن، وعندما استدعى بولارد، قال هذا: إنه يستعملها كأرضية لبحث يقوم به حول التهديدات الارهابية في البحر الكاريبى!!!

يقول وولف بليتشر مؤلف كتاب «مساحة للكذب» أن الرد بدا لجيرى آجى منطقيا - !! - ولهذا، فلقد اعتبر الأمر منتهيا عند هذا الحد!!

ودون أن نضع أية علامات للاستفهام أو التعجب يحكى لنا المستر بليتشر أنه بالرغم من هذا التحذير الذى اذا ما واجهه أى جاسوس في الدنيا، فلسوف يصبح عليه أن يكف تماماً، ولفترة كافية، عن أى نشاط حتى تعود الأمور الى طبيعتها... لكن ماحدث لبولارد كان على العكس تماماً، فلقد استمر في نشاطه التجسسى ربما بكثافة أكبر، وراح يجمع من الوثائق التى تهم اسرائيل، كل ما يمكن أن تطوله يده... ولقد سأله بليتشر بعد

إلقاء القبض عليه، عن السر في عدم توقفه، فجاء رده أغرب من فعله!

قال بولارد: إنه كان قد تعرف أثناء دراسته في جامعة تافت، بشاب عربى له صلات حميمة للغاية مع السلطات الحاكمة في بلاده، وإنه استطاع أن يكتسب ثقة هذا الشاب بل وأن يكسبه الى صفه... وهو من ناحية، كان يعد نفسه ـ عن طريق هذا الشاب الذى أبدى استعداده لمساعدته ـ لاختراق وزارة الخارجية في هذا البلد العربي!!!...

قال بولارد هذا ثم أضاف: إنه بناء على مشروعه هذا، كان ينوى أن يقدم استقالته من البحرية الامريكية كى يتفرغ لمهمته الجديدة، ولذلك... كان حريصاً على أن يمد اسرائيل بأكبر قدر ممكن من المعلومات قبل أن يترك وظيفته هذه!!

وفي الحقيقة فلقد فعل بولارد هذا، ذلك أنه قال لبيتشر ذات لقاء: إن ضابط الاتصال الاسرائيلى الذى كان يلتقى به، والذى كان يشغل منصب الملحق العلمى بالقنصلية الاسرائيلية بنيويورك، قال له مرة: إنه زود اسرائيل بمعلومات تمكنها من الانتصار في أية حرب قادمة!!

وهنا لابد لنا من التوقف قليلاً، لا لمناقشة ما قاله أو فعله بولارد، بل تمحيص ما قاله السيد بليتشر الذى أصدر الكتاب والتقى بكل الأطراف، والذى كان قد قال في البداية، إن الذى جند بولارد في عام ١٩٨٤ هو رجل المخابرات الاسرائيلى

«أبيعام سيلع»... أى أن بولارد لم يجند إلا قبل عام ونصف العام من القبض عليه... فكيف إذن، اقترب من الشاب العربى الذى كان يدرس معه في جامعة تافت؟ وكيف فكر، قبل أن يجند. في اختراق وزارة الخارجية في بلد عربى؟!

وعلى كل... فلنعد الى السيد آجى الذى اعترف بأن علاقته ببولارد قد تدهورت الى حد بعيد، وأنه كان ينوى الاستغناء عنه، وخاصة بعد أن أرسلت له شعبة الادارة باتاك، استمارة روتينية عن ماضيه وحياته طالبة منه أن يملأها، ولقد مرت أربعة أشهر دون أن يملأ بولارد الاستمارة، فرفعت شعبة الادارة الأمر الى رئيس الجهاز كله، الذى سأل بولارد عن السبب في عدم ملء الاستمارة الخاصة بماضيه، فقال هذا: إن كثرة سفرياته الى خارج الولايات المتحدة، أنسته الكثير عن ماضيه!!

غير أن ثمة واقعة هامة، وملفتة للنظر وباعثة على التأمل أيضا، قد وقعت بعد ذلك!

فلقد اسند آجى الى بولارد مهمة القيام ببحث معين، لكن بولارد ـ كعادته ـ تباطأ في الانتهاء من البحث، حتى جاء يوم وصل الغضب بآجى الى مداه، فطلب بولارد، لكن بولارد لم يكن قد وصل الى الادارة بعد... وعلى مدار النهار كله، وقبل انتهاء يوم العمل هذا، كان آجى دائم الاتصال بمكتب بولارد دون جدوى... حتى اذا وصل صاحبنا أخيراً، كان غضب آجى قد وصل الى ذروته، فسأله أين كان طوال اليوم، فذكر بولارد مكاناً، وما يكاد يفعل حتى صاح فيه آجى بحدة أنه كذاب... ولقد كانت

دهشة الرجل شديدة عندما تقبل بولارد الاهانة، واعتذر عن كذبه، وذكر مكاناً آخر كان فيه، وبدا الأمر، بالنسبة لآجي هذه المرة مقنعاً، وانتهى عند هذا الحد!!

ولسوف تثور في الذهن قطعاً أسئلة بلا حصر، وهي أسئلة سوف تدور بالقطع حول هذا الضعف الغريب في رئيس جهاز أمني خطير كهذا، أمام موظف مدني من الممكن الاستغناء عنه في أية لحظة... غير أن هذا يبدو لنا ثانوياً الى جانب الحقيقة التي ذكرها بولارد فيما بعد... فلقد كان في هذا اليوم مستغرقاً مع ضابط اتصاله الاسرائيلي، يراجعان معاً، كافة المعلومات التي كان بولارد قد أمد اسرائيل بها، حول أجهزة الدفاع في ليبيا وتونس والجزائر، وأماكن تواجد الاسطول الفرنسي والاسطول السادس الامريكي في البحر المتوسط... ذلك أن مجموعة الطائرات الاسرائيلية، كان عليها أن تقطع أربعة آلاف وثمانمائة كيلو متراً، في رحلة تضرب فيها مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس، ولقد أصيب مكتب ياسر عرفات لكنه لم يكن هناك، لكن الملفت للنظر، أن بولارد قال، إنه في تلك الليلة ظل ساهراً حتى الصباح وهو في حالة قلق شديد، حتى اذا جاءت الأنباء بنجاح العملية، سقطت دموعه من الفرح، وركع يصلي!!!

... ...

... ...

لست أعتقد أن فيما نحكيه استطراداً أو خروجاً عن المسار،

ذلك أن جوهر العملية يبدو لى مهماً، بقدر أهمية أن نرى كيف انتهت، وكيف اكتشف بولارد، ثم كيف تم القبض عليه!

ذات يوم دق جرس التليفون في مكتب آجى، وكان المتحدث واحداً من موظفيه، وكان الموظف قلقاً لشيء ما... وعندما استفسر منه آجى عن سر قلقه، قال له إنه شاهد بولارد يغادر المبنى وهو يحمل ملفًّا من ملفات ادارة الاتصالات ـ وهى ملفات، لفرط أهميتها وسريتها، كان لها طابع خاص يميزها عن غيرها ـ وإنه غادر المبنى الى حيث كانت زوجته تنتظره في السيارة!

كان اليوم يوم جمعة، واذا كانت الاجازة الاسبوعية هى السبت والأحد، فمعنى هذا أن الملف لن يعود الى الادارة قبل يوم الاثنين... وتحرك الشك في صدر آجى، فاستدعى ضابط الأمن، ولاسبوع كامل كانا يعملان معاً، وفي سرية كاملة، كى يكتشفا أن بولارد يأخذ الملفات ـ بشكل منهجى ومنتظم ـ كل يوم جمعة، ولا يعيدها قبل يوم الاثنين... وهنا، كان لابد له من ابلاغ ضابط المخابرات المختص بالجاسوسية المضادة، ولقد ذهب الى الرجل في بيته، وكان هذا يشاهد مباراة لكرة القدم ويحتسى البيرة، جلس آجى الى جواره، وقص عليه ماحدث... فقال الرجل ببساطة: إن ما تقصه علىّ ليس سوى عملية تجسس واضحة!

وهكذا بدأت المراقبة...

كان أول ما فعلوه هو أنهم وضعوا في مكتب بولارد كاميرات خفية، ثم بدأوا يراقبونه هو وزوجته... واكتشفوا أنه يسلم الملف الذى يأخذه من الادارة في مساء كل جمعة، في محطة لغسيل

السيارات، حيث تلتقى به، في لحظة معينة، وفي مكان بعينه، فتاة تدعى «ايريت ايرب»، وهى تعمل كسكرتيرة في السفارة الاسرائيلية... لكنها لم تكن تأخذ الملف الى السفارة بطبيعة الحال، بل كانت تحمله الى مكان آخر كى تصور كل المستندات المطلوبة.

وقد حدث مساء يوم أحد، أن ذهب بولارد الى منزل ايريت ايرب كى يتسلم منها الملف كالعادة، وعندما دق الجرس لم يأته الرد، فدق الجرس مرة أخرى وثانية دون جدوى، فإنتابه القلق، وعندما حرك مقبض الباب فوجىء بالباب يفتح، لكنه كان مغلقا من الداخل بسلسلة، وكان معنى هذا أن ثمة شخص في الداخل لايريد أن يفتح له... إنتاب بولارد الرعب، وعاد الى بيته يرتجف، كانت زوجته تعلم كل شيء بالرغم من تحذير المخابرات الاسرائيلية له... ولقد شاركته رعبه ليلة كاملة، اتفقا فيها، على أنه اذا ما تحدث اليها تليفونيا، وطلب منها شيئا يخص شجرة الصبار الموجودة في البيت، فإن معنى هذا أن في الأمر خطراً أكيداً، وأن عليها أن تدمر وتتخلص من كل الأوراق والوثائق الموجودة في حوزتهما!

على انه، قبل أن يغادر البيت في صبيحة اليوم التالى، جاءته مكالمة تليفونية من السكرتيرة ايريت تعتذر له فيها عما حدث بالأمس قائلة: إنها كانت تستضيف صديقاً في ذلك الوقت وكان من الصعب عليها استقباله!!

ولقد تنفس بولارد الصعداء...

ومضى أسبوع بدا له فيه أن كل شيء على مايرام...

وما أن جاء يوم الجمعة، حتى ذهب الى قسم الكمبيوتر وطلب ملفات بعينها، وعندما سلمت اليه، عاد بها الى غرفته، ولم يكن يعلم أن هناك من كانوا يراقبونه ويشاهدون كل ما يفعله... وبالرغم من أنه تصفح أوراق الملف، إلا أنه مد يده الى عمق درج مكتبه، كي يخرج ورقة كانت مخبأة، وراح يقرأ ما فيها... ويقول أجي: إنه أدرك أن «اتاك» فيها جاسوس آخر، أكبر من بولارد، لأنه بعد القبض عليه، اكتشفوا أن هذه الورقة التى أخرجها من الدرج، كانت تحوى طلبات معينة، لايمكن لأحد أن يعرف بوجودها في «اتاك»، إلا من كان يعمل بها... وعلى كل، فلقد حمل بولارد الملف، وغادر المبنى، وما أن ركب سيارته، حتى كان هناك من أحاطوا بها من كل مكان... ذهل بولارد، رفع رأسه الى أحدهم متسائلاً عن الأمر، فإذا الرجل يقول:

«تعال معنا بلا ضجيج من فضلك!».

التجسس بين الأصدقاء (٢)

أكاد أوقن أن الوصول الى الحقيقة الكاملة في قصص التجسس أمر مستحيل بكل المعاني، وأن كل ما ينشر، أو حتى يدون في ملفات سرية توضع في أقبية الأمم، ليس سوى جزء من الحقيقة التى لا تكتمل أبداً... ذلك أننا إذا ما رددنا الأمور الى عواملها الأولية، سوف نجد أن هناك جاسوساً،وجهازاً يشرف عليه ويوجهه، ثم جهازاً يقاومه كى يكتشفه أو يكشفه... فإذا كانت السرية المطلقة، أكاد أقول المقدسة، هى القاعدة الأساسية التى ينبنى عليها العمل كله، فإن هذه السرية لا تنطبق على طرف دون الآخر، بل هى تشمل كل الأطراف حتى المتعاونة منها عندما يسود قانون: «المعرفة على قدر الحاجة»... ولكى أبسط المسألة أقول: إن الجاسوس - مثلاً - يعمل ونصب عينيه مجموعة من المحظورات عليه ألا يقترفها مهما كان الأمر، هذه المحظورات تمثل درع الأمن بالنسبة إليه أولاً، وبالنسبة للجهاز الذى يشرف

عليه ثانياً، وبالنسبة للعملية المنوط به القيام بها أخيراً... غير أن الملفت للنظر، أن كل الجواسيس الذين قرأنا عنهم، لم يلتزموا بهذه المحظورات خاصة إذا طالت المدة الى أعوام، بل كانت لهم - جميعاً - «سريتهم الخاصة» بهم بعيداً عن الأجهزة!

غير أني لا أرى الأمر يقتصر هنا على الجاسوس وحده فقط، بل على كل من يتعامل معه من هنا أو هناك، ذلك أن لكل شخصية من الشخصيات - أيضاً - سريتها الخاصة التى لا نستطيع الوصول إليها باليقين.!!

وعلى سبيل المثال، ففى قضية مثل قضية الجاسوس الإسرائيلى «جوناثان جى بولارد»، لفت نظرى موقف الرجل الذى يدير جهازاً مثل «اتاك» الذى يعمل فيه بولارد، وأعنى به المستر «جيرى آجى» الذى، ومنذ البداية، كان يرى في بولارد - هكذا قال وردد وأكد في أكثر من مناسبة - رجلاً يدّعي لنفسه ما ليس فيها، كذاباً يحب التظاهر رغم أنه يعمل في جهاز من أجهزة الأمن، ويؤتمن على أسرار تمس الدولة العظمى التي ينتمي اليها... ولقد اكتشف كذبه، لا مرة واحدة، بل مرات متعاقبات، وإذا به يتغاضى المرة بعد المرة، وفي كل مرة يجد مبرراً لهذا التغاضى يدفع به الى الآخرين، ويقينا ليس لضميره.. فإذا عرفنا أن مثل هذه الأجهزة لا يسمح فيها، أو يجب ألا يسمح فيها بمثل هذا التغاضى، ازدادت دهشتنا عندما يصل الأمر الى حد «ضبط» ملفات بالغة السرية - مثل الملفات الخاصة بالأسلحة الحديثة التى أمدت بها الولايات المتحدة بعض الدول العربية - في غير مكانها،

يطلبها موظف مدنى لا علاقة لعمله بها على الاطلاق... ثم يقبل منه تبريراً سانجاً لا يقنع طفلاً!!

وعلى كل، فـفى كل تصـرفـات السـيـد «آجى»، نراه وكـأنه يتعاون، أو ـ على الأقل ـ كأنه خائف من مواجهة المستر جوناثان جى بولارد، الذى اشـتـهـر بين زمـلائه بالصلف والعـجـرفـة وقلة الأدب...

فلماذا كان خوفه؟!

ولماذا كان تردده في توقيع العقوبة عليه؟!

ولماذا تهرب من مواجهته مواجهة صريحة؟!

كل هذه أسئلة ـ وغيـرها كثـيـر ـ لا نملك عليـهـا أى نوع من أنواع الاجابات... ولكن حيرتنا سوف تقل حتماً، عندما نتنبه إلى حقيقة تبدو واضـحـة، هى أن السيد «جيرى آجى» رئيس إدارة «اتاك»، وهى إدارة أمنية تابعة للاسطول الأمريكى لم يتحرك، ولم يبلغ... إلا عندمـا اكتشـف موظف آخر أن بولارد يأخذ معه الملفات الخطيرة والبالغة السرية الى المنزل... أى أنه لم يتـحـرك إلاّ عندما خرج الأمر من يده، ومن دائرته إلى دائرة أوسـع، وكان عليـه أن يحمى نفسـه قبل أن تقع الطامـة التى رآها واقـعـة لا محالة!!!

ثم تبقى بعد هذا واقعة بالغة الغرابة، ذكرها السيد بليتشر مؤلف كتاب «مساحة للكذب»، لكنه مر عليها مرور الكرام دون أن يتعرض لها أو يذكر لنا ما الذى اتخذ حيالها من اجراءات.

هذه هي واقعة الورقة التى امتدت يد بولارد إلى عمق درج مكتبه ـ أثناء مراقبته بكاميرات التليفزيون ـ كى يخرجها، والتى اكتشفوا فيما بعد، أن بها قائمة بالمعلومات المطلوب من بولارد الحصول عليها من «اتاك»، مما أكد ـ كما قال السيد أجى ـ أن في الإدارة عميلاً آخر أكبر من بولارد، إذ إن قائمة المعلومات التى عثروا عليها، تحوى أشياء لا يعرف إلا القليلون أن «اتاك» مهتمة بها!

فماذا عن هذا العميل أو الجاسوس؟!

ومن هو؟!

ولماذا لم يسع المحققون للكشف عنه؟!

هذه كلها أسئلة ستظل حتماً بلا جواب... غير أننا لو تخلينا عن داء الكسل الذهنى وتتبعنا مجريات القصة كما وقعت، فلقد نكشف فيما حدث خيطاً، وربما خيوطاً تقودنا أقرب ما يكون من الحقيقة!!

• • •

لم تكن المفاجأة سارة بطبيعة الحال للسيد بولارد عندما وجد نفسه محاطاً بالرجال بعد أن ركب سيارته ومعه ذلك الملف البالغ الخطر، والذى عثر فيه المحققون، على ستين وثيقة هامة، منها عشرون وثيقة على الأقل مختومة بخاتم «سرى للغاية»!!

عندما طلب منه الرجال أن يصحبهم الى الداخل، سألهم

سؤالاً واحداً ومحدداً:

«هل أنا مقبوض عليّ؟!»

جاءه الجواب بالنفي، قالوا إنهم يريدونه فقط لاستيضاح بعض الأمور، وإن الأمر لن يستغرق أكثر من نصف ساعة يستطيع بعدها أن يعود إلى بيته!

كان بولارد في تلك الليلة، على موعد مع رجل المخابرات الإسرائيلي «ابيعام سيلع» الذى قيل إنه هو الذى جنده لحساب الموساد، وكان الموعد على دعوة للعشاء وجهها بولارد لسيلع وزوجته... لكن التحقيق مع بولارد أخذ بعض الوقت، لذلك، فلقد استأذن من المحققين - بعد ساعتين - كى يتصل بزوجته حتى يتسنى لها أن تعتذر عنه للضيف الذى كان بالقطع منتظراً... ولقد سمح له المحققون بالاتصال دون أن يسألوه عمن يكون هذا الصديق أو الضيف... وما أن اتصل بولارد بزوجته «آن» حتى طلب منها أن تأخذ «شجرة الصبار» الصغيرة، مع البوم صور زواجهما، وأن تذهب بهما للأصدقاء وتعتذر لهم عن الموعد، إذ إنه مضطر للبقاء في مكتبه حتى ساعة متأخرة من الليل لانجاز عمل طارىء!

كان بولارد قد اتفق مع زوجته، على أنه إذا ما تحدث إليها في التليفون، وجاء ذكر شجرة الصبار الصغيرة، فإن هذا يعنى أنه في خطر، وأن عليها أن تتخلص من كل الوثائق الموجودة في البيت... ولقد فهمت «آن» بطبيعة الحال رسالة زوجها، خاصة

عندما ذكر لها البوم صور زواجهما... فلقد كانت تعلم أنه أخفي في الألبوم عدداً لا بأس به من المستندات التى تحتاج إليها الصين، وكان ينوى تقديم هذه المستندات للصينيين نظير ايجاد وظيفة لزوجته في السفارة الصينية بواشنطن!!!

غير أن الأمر - بالقطع - لم يكن بمثل هذه البساطة، فما أن وضعت «آن بولارد» سماعة التليفون حتى أحست أنها تائهة، كان أمراً طبيعياً أن ترتبك وأن تنتابها العصبية الشديدة، فهاهو المحظور قد وقع بالرغم من أن جوناثان أكد لها بدل المرة عشرات المرات أنه - أبداً - لن يُكتشف، وأنه حتى لو اكتشف، فلن تقف إسرائيل مكتوفة الأيدى، ولن تتركه في مهب رياح التحقيقات والتساؤلات!

أشعلت آن سيجارة وتذكرت موعدها مع ابيعام سيلع وزوجته، ولقد كان هذا - من وجهة نظرها - من حسن الطالع دون شك، وقبل أن تتصل بالسيد سيلع، كان عليها أن تقوم، وبسرعة، بما هو أهم... جاءت بحقيبة ملابس، وراحت تجمع الوثائق من كل مخبأ وضعها فيه جوناثان، ودست في الحقيبة حذاء قديماً، وفستاناً كانت قد قررت الاستغناء عنه، وبذلة قديمة كان زوجها، يحتفظ بها لسبب لا تدريه... و.. و... ووسط كل هذا وضعت أيضاً ألبوم الصور، وأصبحت الحقيبة ثقيلة حقاً، ولكن، ليس هناك وقت أو حتى مجال للتفكير أو التردد لحظة.

كان عليها الآن أن تتخلص من الحقيبة بسرعة، ورغم ثقلها

البادى فلقد حملتها، وغادرت مسكنها لكنها لم تستطع أن تغادر البناية... فهي، ما أن أطلت من الباب حتى تسمرت ذاهلة وقد أسقط في يدها... كانت هناك مجموعة من السيارات تعرفها جيداً، والتى كثيراً ما أشار بولارد إليها وهما يعبران طريقاً أو يقود أحدهما السيارة... كانت السيارات تسد كل المنافذ إلى البيت، وفي كل سيارة، كان يجلس رجلان!!

أدركت «آن» أن الأمر، بالفعل خطير، وأن زوجها قد انكشف أمره وأنه الآن في ورطة حقيقية... ارتدت إلى الوراء، وضعت الحقيبة بمحتوياتها الثمينة تحت سلم البناية وعادت إلى البيت... كانت أن بولارد ممزقة الفكر، راحت تدخن في عصبية ثم خطر لها أن تتصل بالسيد سيلع فلقد يستطيع أن يصنع شيئاً لزوجها،لكنها عدلت عن فكرتها، وإذا كان البيت مراقباً فلابد أن يكون التليفون كذلك، كانت تعلم أن الرجل وزوجته في انتظارهما الآن... كما كانت الملفات والوثائق تحت سلم البناية، فماذا عليها أن تفعل؟!

... ...

... ...

في ذلك الوقت كان رجل المخابرات الإسرائيلى ابيعام سيلع يجلس في غرفته بالفندق مع زوجته وهما يشاهدان التليفزيون، وكانا في انتظار مكالمة من بولارد... غير أن الموعد المحدد للمكالمة جاء وانقضى من بعده نصف ساعة، ثم ساعة دون أن يدق جرس التليفون ودون أن يتصل بولارد... نهض سيلع إلى

التليفون وكان الغضب قد استولى عليه، طلب بولارد وظل جرس التليفون يدق لدقيقة دون أن يرد أحد، فأدرك الرجل أن بولارد لا شك في الطريق إليه، أعاد السماعة إلى مكانها، وعاد إلى جلسته بجوار زوجته أمام التليفزيون.

كانت «آن بولارد» قبل دقائق قد وجدت مخرجاً من ورطتها... غادرت البيت ولجأت إلى جيرانها «كريستين وباباك اسفن»، وطلبت منهما أن يساعداها في الخروج من البناية بالحقيبة التى كانت تمثل بالنسبة إليها كارثة محققة، ولقد بدا الأمر للزوجين «اسفن» غريباً، وظن المستر باباك في البداية أن ثمة خلافاً قد حدث بين الزوجين بولارد، خاصة وأن «آن» كانت في حالة عصبية شديدة، مما دفعه لأن يحاول تهدئتها، وهو يقدم لها شرابا... لكنها رفضت الشراب هاتفة:

«لست في حاجة إلى شراب، إنى في حاجة إلى المساعدة!»

بدا الموقف الآن غريبا بحق، تبادل الزوجان «اسفن» النظرات، واضطرت «آن» أن تؤلف قصة حول وثائق سرية تخص السفارة الصينية ورغبتها في التخلص من هذه الوثائق، وخوفها من الخروج من البناية لأنها زوجة رجل يعمل في جهاز أمنى خطير... و..... وكانت «آن بولارد» تتخبط فعلا في الحديث مما دفع باباك اسفن أن يسألها عما تريد بالضبط... وهنا، طلبت منه أن يأخذ الحقيبة الموضوعة تحت سلم البناية، وحددت له فندقاً في أطراف واشنطن، وطلبت منه أن يحمل الحقيبة إلى ساحة

الانتظار التابعة لهذا الفندق، وإنه إذا وصل الى هناك، فلسوف يجدها في انتظاره...

أدار السيد اسفن الأمر في ذهنه قليلا، ولم يكن أمامه سوى أن يجاريها، وما أن اعلن موافقته، حتى طلبت منه آن، في الحال، أن يسلك طريقا غير مباشر في الوصول إلى هذا الفندق، وأن يتأكد أنه غير متبوع في سيره... ووافقها المستر باباك اسفن، وانصرفت «آن» !

غادرت البيت، ركبت السيارة دون أن تحمل معها الحقيبة، وكانت تعلم الآن أنها مراقبة فقررت أن تفلت من المراقبة حتى تستطيع أن تتخلص من الوثائق الكارثة... عند أحد المحلات الكبيرة أوقفت «آن» السيارة، وعلى الفور، وبسرعة، وبشكل طبيعى تماماً، وبدون أن تنظر خلفها، دلفت إلى المحل من باب، وخرجت من باب آخر، كى توقف أول سيارة تاكسى تمر بها، وتطلب من السائق أن يتجه الى هذا الفندق البعيد!

وبالطبع، وبمثل هذا الأسلوب البسيط جداً، استطاعت «آن» أن تهرب من مراقبيها، وأن تصل إلى ساحة الانتظار في هذا الفندق، وأن تقف في انتظار باباك اسفن!

لكن باباك لم يصل..

مر نصف ساعة ومرت ساعة ولم يصل، اتصلت «آن» بزوجته في التليفون فقالت لها هذه إنه لابد وأن يكون الآن عندها، كان الانتظار والقلق قد اكلا أعصاب «آن» اكلاً... وكان الوقت يجرى

والدقائق تتتالى، ولم يكن أمامها سوى أن تتصل بسيلع، لعله يستطيع أن يفعل شيئاً... وبالفعل اتصلت بسيلع الذى كان الغضب قد استبد به تماماً، فلقد مضت ساعتان على الموعد المضروب بينه وبين بولارد، غير أن «آن» لم تقل شيئا في التليفون، لم تكن تستطيع أن تقول شيئا، وذلك أنها - بداية - لم يكن من المفروض أن تكون على علم بعلاقة زوجها بالإسرائيليين، هكذا طلبوا منه وهكذا شددوا عليه أن يظل الأمر سراً حتى على زوجته، لكن بولارد أخبرها، وطلب منها أن تتظاهر بأنها لا تفهم شيئاً في مثل تلك اللقاءات مع سيلع... وهكذا، كان كل ما طلبته آن من سيلع في التليفون، هو أن تلتقى به في مطعم حددته له، قالت له إن الأمر هام للغاية وإنها تريد أن تراه بأى ثمن!!

لم يكن أمام سيلع سوى أن يلبى، غير أنه، بحسه المهنى، كان قد توجس خيفة، ولقد ذهب بالفعل إلى المطعم في الموعد الذى حدده للسيدة بولارد التى كانت الآن قد وصلت الى حالة من التدهور العصبى أذهلته، كانت «آن» شاحبة، وكانت مهوشة الشعر تدخن بلا انقطاع ويداها ترتجفان... راحت تلف وتدور حول الموضوع، تريد أن تستغيث وفي نفس الوقت تريد أن تدعى الغباء، جلس سيلع أمامها صامتاً وهو يستمع الى كلمات متناثرة غير مترابطة، فلقد أدرك الرجل، منذ الدقائق الأولى، أن أمر بولارد قد إنكشف، وأنه الآن في ورطة، كما أدرك أن «آن» تعرف كل شيء... وهكذا، ما أن استنفدت «آن» كل ما لديها من كلمات، حتى انفجرت في البكاء!!

كان الموقف شديد الغرابة، راح الرجل يهدىء من روع «آن» وعقله يعمل بسرعة، ولقد تأكد له الآن، أن بولارد لم يكشف أمره فقط، بل لقد وصل به الأمر الى حد الظن بأن «آن»، بأسلوبها هذا، وبكائها، ليست سوى شرك نصبه له الأمريكيون، وليس من المستبعد أن تكون قد وضعت جهازاً للتسجيل في حقيبة يدها أو في صدرها... وهكذا، كان عليه أن ينتقي كلماته، وأن يكون حريصاً معها كل الحرص، حتى لا يعطي الأمريكيين فرصة القبض عليه «متلبساً»!!

ما أن هدأت «آن» قليلاً، حتى كان سيلع قد اتخذ قراراً حاسماً، كان قد قرر أن يغادر الولايات المتحدة في نفس الليلة... ذلك أنه لم يكن يملك جواز سفر دبلوماسياً، وكان الحصول على جواز دبلوماسي في مثل الظروف التي وجد نفسه فيها، أمراً بالغ الصعوبة!

استأذن سيلع من «آن» لبضع دقائق قائلاً إنه يبغي أن يجري مكالمة تليفونية... وكانت المكالمة التي أجراها مع «يوسي ياجور» رجل المخابرات المسئول عن بولارد في واشنطن، ولقد حاول ياجور أن يطمئن سيلع من ناحية بولارد قائلاً إن بولارد من المستحيل أن يعترف بأية علاقة مع الإسرائيليين، وعندما وصف له سيلع حالة آن المتدهورة، نصحه ياجور بمغادرة الولايات المتحدة في نفس الليلة!!

عاد سيلع الى «آن»، جلس اليها وسدد نظراته الى عينيها،

قال لها إنها يجب ألا تبالغ في الأمر، وإن جوناثان سوف يجد كل مساعدة من أصدقائه، ثم... ثم طلب منها أن تظل جالسة في مكانها حتى منتصف الليل تماماً لا تغادره مهما كان الأمر ـ كان قد حسب الحسبة ووجد أن هذا هو الوقت الكافي لأن يغادر فيه فندقه الى المطار كى يستقل أول طائرة مقلعة الى أى مكان في العالم خارج الولايات المتحدة الأمريكية... قبل أن يغادرها طلب منها ألا تذكر اسمه لأحد مهما كان، وحتى اذا ذُكر اسمه أمامها، فلسوف يصبح عليها أن تنكر أية معرفة به!

عاد ابيعام سيلع الى الفندق، وفي أقل من خمس عشرة دقيقة، كان قد أعد الحقائب... حاول أن يجد تذكرتين على طائرة مقلعة في نفس الليلة من واشنطن، ولم يكن هذا ممكناً... اتصل بياجور الذى قام باستئجار سيارة وضع فيها سيلع حقائبه، وقادها مع زوجته الى نيويورك، حيث استقلا طائرة أقلعت في ساعات الصباح المبكرة الى اسرائيل!!

عندما كان سيلع يغادر المنطقة الجمركية في المطار، قدم لضابط الجوازات، جواز سفر آخر، غير هذا الذى دخل به الولايات المتحدة... كان مهماً للغاية، ألا يعرف أحد أنه غادر البلاد!!!

• • •

في الحادية عشرة والنصف، أطلق المحققون سراح بولارد كى يعود الى منزله... كان قد استطاع أن يراوغهم بالتلاعب بالألفاظ

حيناً، أو اختلاق القصص حيناً آخر، أو تصنع الغباء... ذلك أن كل همه في ذلك الوقت، هو أن يبعد عن نفسه شبح التجسس، وأن يبعد عن الأذهان أية علاقة له بالمخابرات الإسرائيلية!

وفي البداية، عندما سألوه عن سبب خروجه بالوثائق من الإدارة، قال أنه كان على موعد مع زميل له كي يتدارسا الوثائق معاً، وعندما اتصل المحققون بهذا الزميل - ولم يكن الأمر صعباً بطبيعة الحال - أنكر الأمر انكاراً تاماً وأبدى استعداده لمواجهة بولارد... وعاد بولارد كي يقول إنه كان ينوى أن يعطى المعلومات لأحد الصحفيين نظير مبلغ من المال... وعندما وصل السيد «جيرى أجى» مدير «اتاك» كان ثائراً ثورة عارمة، واتهم بولارد بالكذب، وكان عصبياً الى الحد الذى اضطر الرجال الى إبعاده عن بولارد حتى لا يفسد الأمر كله - !!! - لكنه بطبيعة الحال لم يتردد في اعلان بولارد بوقفه عن العمل الى حين الانتهاء من التحقيق!

وعندما طلب المحققون من بولارد، الموافقة على تفتيش بيته، رفض رفضاً قاطعاً... كان الآن يفكر في زوجته، وكان يريد أن يعطيها فسحة من الوقت كي تتخلص من الوثائق الموجودة في البيت، وعندما سأله أحدهم في تخابث عن سبب رفضه لتفتيش البيت وهو واثق من نفسه وتصرفاته، تصنع بولارد الخجل وقال إنه يحتفظ بقطعة من المخدرات كان يريد أن يدخنها فيما بعد، فوعده المحققون بأن يتغاضوا عن مسألة المخدرات تماماً، فعاد

يقول إن زوجته في الحقيقة مريضة، وإن أمراً مثل هذا قد يزيد حالتها سوءاً و... و... وفي الحادية عشرة والنصف قالوا له إنه يستطيع الآن العودة الى بيته، وقال هو: إنه لا يمانع في تفتيش البيت اذا كان هذا ضرورياً في التحقيق، لكن موافقته الآن لم تكن ذات قيمة، فلقد كان الرجال قد استصدروا أمراً بتفتيش البيت، ولم يعودوا في حاجة الى إذن منه!!

... ...

... ...

عندما عادت «آن بولارد» بعد منتصف الليل بحوالى نصف ساعة الى بيتها ... كان جوناثان هناك، وكان الرجال منتشرين في كل أرجاء البيت يفتشون بدقة متناهية، ذلك أنهم، وقبل وصول «آن» بدقائق، كانوا قد عثروا على أكثر من خمسين وثيقة مصنفة تحت كلمة «سرى جداً»، وكانت «آن» بالقطع قد نسيت أن تأخذها في غمرة ارتباكها ضمن ما أخذت من وثائق... وهم، عندما وضعوا الوثائق تحت عينى بولارد، سائلين إياه عن سبب وجودها في البيت، قال: إنه لابد جاء بها لعمل ما، ثم نسيها!!

في تلك الليلة لم يصدر أمر بالقبض على بولارد... لم يكن هناك دليل على أن الرجل يتجسس لحساب أحد، وإن كان الأمر قد خامر المحققين دون شك... ولكن، وحتى الآن، لم يكن من الممكن أن توجه له سوى تهمة الإهمال أو الخروج بوثائق سرية، وهى تهمة أقصى عقاب لها هو الفصل من وظيفته في «اتاك»!!!

غير أن المحققين قبل انصرافهم، طلبوا منه أن يوافيهم في الصباح، لا لاستكمال التحقيق معه فقط، ولكن لوضعه تحت جهاز كشف الكذب!!

وكان في هذا الكفاية، كي يقضي بولارد ليلته بلا نوم!!

التجسس بين الأصدقاء (٣)

اعتقد أنه لابد من التنويه ـ من باب الاحتياط ـ الى أن الحديث عن التجسس والجاسوسية، ليس استجلاباً للمتعة والإثارة والتشويق فقط، ولكن ـ وهذا هو ما يجب أن نضعه في الاعتبار ـ لاعمال الفكر ومحاولة الفهم... يكفي أن نقول إن كلمة «مخابرات» ليست هى الترجمة الصحيحة لاسم هذا النوع من النشاط الإنسانى، لكن الترجمة الدقيقة هى «ذكاء»... ذلك أن اللعبة في الأصل لعبة «ذكاء»، وإعمال العقل في كل شىء، في المقدمات والنتائج والبدائل... و... وعشرات العناصرالتى تنمى فينا عادة التفكير والبحث عن الجوهر بدلاً من الكسل الذهنى والقناعة بالقشور دون بذل الجهد للوصول الى اللب!!

وقد تكون قصص التجسس مادة لتزجية الوقت... وهى كذلك بالفعل إن وضعت في إطار سطحى يقصد صاحبه الى البعد عن مواطن الجد في مثل هذه القصص الحافلة بما نستطيع أن

نسميه «مصابيح كاشفة»... مصابيح تلقى الضوء على المستور من الأحداث أو الأسباب أو سمها ما شئت من أسماء!

يدفعنى الى هذا القول أمران:

الأمر الأول: هو المناخ العالمى الذى وقعت فيه أحداث قضية الجاسوس الإسرائيلى جوناثان بولارد، وهو مناخ كان مفعماً بقضايا تجسس وفضائح وأحداث متلاحقة، حتى لقد أطلق البعض على تلك السنوات - منتصف الثمانينات من هذا القرن - أنه عصر حروب التجسس... ففى تلك الحقبة الغريبة، كانت قضايا التجسس تتفجر فيما بين الشرق الذى ولى، والغرب الذى لايزال جاثماً على قلب العالم بقوانينه الخاصة وسطوته... فمن قضية «غبار التجسس» التى فجرتها الولايات المتحدة الأمريكية ضد الاتحاد السوفيتى، وهى قضية شغلت الرأى العام العالمى لبضعة شهور، الى قضية هروب «جواخيم تيدكه» رئيس قسم التجسس المضاد في مخابرات ألمانيا الغربية الى ألمانيا الشرقية وقتها، وما جره هذا الهروب الذى كان له دوى مروع، الى الحديث عن سكرتيرة الهر تيدكه التى كانت قد اختفت قبل ذلك ببضعة أشهر، ثم - مع البحث - اتضح انها كانت قد انتحلت اسم «كوافيرة» شهيرة كانت هى الأخرى قد اختفت قبلها ببضعة أعوام دون أن يعرف أحد ما الذى حدث لها... الى رد الغرب على ذلك بطلب رجل المخابرات الأول في السفارة السوفيتية في لندن، حق اللجوء السياسى للمملكة المتحدة!!

كان هذا هو الجو العام الذى تفجرت فيه قضية بولارد، فكان

لابد لها أن تحتل مكانها في أعمدة الصحف واهتمام الناس...

أما الأمر الثاني : فهو ذلك التحفظ الشديد الذى نريد أن ننبه له بالنسبة لكتاب المستر «وولف بليتشر»... أو بتعبير أدق، بالنسبة لهذا النوع من الكتب ـ بشكل عام ـ والتى تصدر عادة بمصاحبة حملات اعلانية وإعلامية هائلة ـ وهذا حديث سوف نعود إليه بالتفصيل ـ ذلك أن ما يرد في هذه الكتب ليس بالضرورة هو ما حدث بالضبط، لكنه بالضرورة ـ أيضاً! ـ يروى ما حدث من وجهة نظر خاصة علينا أن ننتبه لها، وأن نمحصها، ونحذر ونحن نتناول ما جاء فيها... ثم يصبح علينا أن ننقب بين السطور أو خلفها بين الأحداث عن وجه آخر للحقيقة، يحاول صاحب الكتاب أن يخفيه عنا، عمداً أو دون عمد!

ثم يبقى ذلك الإحساس المضني الذي يستشعره من يحملون هموم الوطن في قلوبهم، وهم يدخلون عصراً تتسيد فيه المعلومات وتتزايد تزايداً تحدثنا عنه في فصل سابق... ذلك أن مجريات الأمور من حولنا، وفي داخل وطننا، تنبىء أن ثمة ترتيبات كونية من المستحيل أن تتم بعيداً عن «الأجهزة» المعنية، وهى ترتيبات تحتاج منا الى رصد واع وإنتباه شديد... إن السنوات القادمة، تبدو في أفق الزمن مشحونة بالتغيرات والمتغيرات التى قد تصنف هنا وهناك، وعلينا على الأقل، أن نكون على مستوى الفهم لما يجرى حولنا في كون يبدو مستقبله مثل عجينة في مضرب للخبز لم تتشكل أرغفته بعد!!

• • •

أفرج المحققون في تلك الليلة عن بولارد لعدم وجود دليل على أنه تجسس، ثم إنهم أدركوا بطبيعة الحال، أنه تلاعب بالألفاظ والوقائع وأنه سوف يتلاعب بها ولسوف يخفي قدر امكانه، الجهة التى يتعامل معها... وفي هذا الصدد قال «جيرى أجى» رئيس اتاك للمستر فليتشر مؤلف كتاب «مساحة للكذب»:

«لم تكن لدينا أية دلائل على أن الرجل جاسوس، ولم نكن ندرى على وجه اليقين حتى ذلك الوقت، ما الذى كان يفعله بهذه الوثائق... لذلك، فلقد أطلقنا سراحه كى نعرف الحقيقة أثناء مراقبته!!»

وبدون أدنى شك، فلقد كانت هناك حسابات واحتمالات، ومع الجو الذي كان يسود الكرة الأرضية في ذلك الوقت، فلقد رجح البعض أن بولارد كان يتعاون مع إحدى دول الكتلة الشرقية ـ وقتذاك! ـ وكان هذا وارداً بطبيعة الحال... وإن كان هناك اتجاه آخر رأى أنه يتعاون مع إسرائيل... مما دفع أحد الرجال في «اتاك» الى القول:

«اللعنة... ماذا يريدون أكثر مما يأخذون؟!»

وعلى كل... فلقد طلب منه المحققون في نهاية الليلة التى ضبط فيها متلبساً بسرقة الوثائق، أن يلاقيهم في اليوم التالى، لوضعه تحت اختبار لكشف الكذب!!

وكان هذا بالذات هو سر القلق الذى انتاب بولارد في تلك الليلة، ذلك أنه كان موقناً أنه اذا ما وضع في هذا الاختبار،

فلسوف ينكشف أمره لا محالة... وعلى هذا، فما أن غادر الرجال بيته بعد أن اشبعوه تفتيشاً وأخذوا كل ما حصلوا عليه من وثائق، كان بولارد قد سرقها، حتى صحب زوجته «آن» لتناول العشاء في مطعم قريب من البيت!

لم يكن بولارد وآن راغبين حقاً في تناول الطعام في الخارج بعد يوم حافل مثل يومهما ذاك الذى انقضى، لكنه أراد التظاهر بالبراءة وعدم المبالاة، شأن غير المذنبين أو الخائفين، مما يوحى لمن يراقبونه بأنه يحيا حياة عادية... هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فلقد كان موقناً بعد ما حدث، أن تليفونه لابد قد وضع تحت الرقابة، وكان هو يريد الاتصال بمن يهمه الأمر بأى ثمن!

ولقد فعل... فمن تليفون المطعم، الذى لم يكن مراقباً بطبيعة الحال، اتصل برجل السفارة الإسرائيلية «يوسى ياجور» .. وكان ياجور، منذ اتصل به ابيعام سيلع قبل ساعات، في حالة قلق شديد يريد أن يعرف ما الذى كان يدور هناك... ولذلك فعندما سأل بولارد إن كان كل شيء على ما يرام، رد عليه بولارد بقوله إنه في مأزق حقيقى، فعاد ياجور يسأله إن كان الأمريكيون قد عرفوا شيئاً عن تورطهم في الأمر... فلما نفي بولارد ذلك، طمأنه هذا قائلاً إن هناك مجموعة كاملة تتحرك الآن لانقاذه مما هو فيه... ثم طلب منه أن يتصل برقم التليفون السرى الذى أعطى له عند بدء العلاقة بهم، اذا ماجدّ في الأمر ما يستدعى ذلك!

عاد بولارد وآن الى البيت... وكان يعلم الآن أنه محاصر

تماماً، وأن أمرة قد انكشف، وأن لا سبيل الى اصلاح ما حدث، وأن المخرج الوحيد أمامه هو الخروج من الولايات المتحدة الأمريكية... وهو- بطبيعة الحال- كان يتوق للذهاب الى إسرائيل، التى كان قد زارها قبل بضعة أشهر مع زوجته بدعوة من الحكومة الاسرائيلية، ومكث فيها أسبوعين عوملا فيها معاملة ممتازة!!

وهو لم يعرف النوم في تلك الليلة، كان كل همه هو البحث عن وسيلة يتجنب بها الجلوس الى ذلك الاختبار الرهيب لجهاز كشف الكذب... ولذلك، وبعد إمعان التفكير، فلقد قرر الخروج من المأزق باعتراف مزيف!!

في صبيحة اليوم التالى، طلب من زوجته - قبل الذهاب الى التحقيق - أن تخرج من البيت، وأن تسير في شوارع المدينة على غير هدى، أن تتسكع أينما شاءت، ذلك أن شخصاً ما سوف يلتقى بها بأسلوب أو بآخر، كى يخبرها بما يجب عليهما أن يفعلاه لمغادرة الولايات المتحدة!

ولقد كان بولارد مقتنعاً أن إسرائيل لن تتركه، ولن تتخلى عنه... ولذلك، فما أن وصل الى الإدارة، وقبل أن يطلبوا منه الجلوس الى جهاز كشف الكذب، حتى أعلن انه على استعداد لأن يدلى باعتراف كامل ومفصل... وكان طبيعياً، مادام سوف يعترف، أن يُؤجل اختبار كشف الكذب... وهكذا، وعلى مدى ست ساعات كاملة، أدلى بولارد باعترافات مذهلة، ودل المحققين على

وثائق جديدة، هى حوالى مائة، كان قد أخذها ضمن ما أخذ... وقال إنه كان يبيعها لصديق صحفي نظير مبالغ معينة من المال!... لكنه أنكر انكاراً تاماً أي اتصال له بأية دولة أو حكومة أو سفارة أجنبية، كما أنه نفي ذلك أيضاً عن صديقه الصحفي، وان كان قد قال إنه لا يستبعد أن صديقه قد أمد المجاهدين الأفغان ببعض الوثائق التى تساعدهم!!!

وهنا... طلب منه المحققون، أن يكتب اعترافاً بخط يده بكل ما ذكره... ووافق بولارد على الفور، وكتب اعترافاً من إحدى عشرة صفحة، وقال فيه إنه باع الوثائق نظير مبالغ معينة من المال... ولقد كان في حقيقة الأمر، على استعداد لما هو أكثر، فقط... شريطة ألا يجيء اسم اسرائيل في الموضوع!!

... ...

... ...

ولقد يدهش الإنسان لهذا الاصرار الغريب من مواطن «أمريكى الجنسية» يتجسس لحساب دولة أخرى، على إخفاء اسم هذه الدولة مهما كلفه الأمر من عنت... وعلى كل، ولأن عدد الوثائق التي ضبطت، والوثائق التى ثبت أن بولارد قد أخذها خلال العام الذى انقضى، كان كبيراً بدرجة مذهلة، فلم يكن من الممكن بحال من الأحوال أن يصدق أحد، أن هذا الكم قد بيع لصحفي... وكانت الاجابة الوحيدة والمقنعة، هو أن بولارد كان يتعامل مع دولة... فمن هي هذه الدولة؟!

كان هذا هو السؤال الذى واجه المحققين، والذى كان لابد له من إجابة سريعة خاصة وأن رائحة القضية كانت قد فاحت، وتحدثت عنها الصحف وتناقلتها وكالات الأنباء في تربة عالمية شديدة الخصوبة لتلقى مثل هذه الأخبار والقضايا!

أما بولارد، فمن ناحية كان يلعب اللعبة - باغراقهم بهذا الكم من الحقائق - بضرب عصفورين بحجر واحد... فهو أولاً - وهذا هو المهم - كان يسوّف حتى لا يوضع تحت اختبار كشف الكذب، وثانياً... فلقد كان يعطى الإسرائيليين فرصة تدبير خطة محكمة كى ينقذوه بها، وكانت ثقته شديدة في أنهم لابد فاعلون!!

ولقد أفلت بولارد بالفعل من مواجهة ذلك الاختبار الذى كان يخشاه، وأفلحت خطته... ولما لم يكن هناك دليل على تجسسه، فلقد أفرجوا عنه على أن يعود لاستكمال التحقيق في اليوم التالى... ولكن، مع وضعه تحت رقابة بالغة الصرامة، بحيث يستحيل عليه الافلات مهما فعل!

وعندما عاد بولارد الى البيت في المساء، كانت «آن» هناك في شبه انهيار، ذلك أن سعيها طوال اليوم في شوارع المدينة، لم يأت بنتيجة، فإن أحداً لم يستوقفها، أو يرسل إليها اشارة، أية إشارة، رغم استعدادها طوال النهار لتلقى ولو نظرة من أى إنسان يعبر الطريق!

جلس بولارد وآن يفكران فيما يمكن أن يخرجهما من هذا المأزق... لكنهما لم يكونا على علم بمجريات أمور أخرى كانت قد

حدثت أثناء النهار... ذلك أن جارهما المستر باباك اسفن وزوجته كريستين، كانا قد حملا الحقيبة التى وضعتها «أن» تحت سلم البناية، وسلماها إلى إدارة المباحث الجنائية «اف. بى. أى»، مع اعتراف كامل بكل ما قالته «أن»، وكل ما فعلته بخصوص تلك الحقيبة التى كانت تحوى من الوثائق، ما إن وضع فوق بعضه، لكان ارتفاعه حوالى أربعين سنتيمتراً!!

لكن بولارد اصطحب أن في نفس الليلة الى المطعم، حيث تناولا هذه المرة طعام العشاء حقاً... ولقد كان حتى هذه اللحظة، لا يساوره الشك في أن الإسرائيليين سوف يظهرون في الوقت المناسب... وبطبيعة الحال، لم يكن ممكناً أن يتصل بأحد من تليفون المطعم، لذلك... فلقد حاول الاتصال بيوسى ياجور من كابينة تليفون عمومى... كانت «أن» عصبية، خائفة، وكان هو يطمئنها بقوله:

«إن الاسرائيليين هم عائلتنا، صدقينى، وهم جواسيس لا يشق لهم غبار، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يتخلوا عنا في مثل هذه المحنة التى نمر بها!!»

توقفا عند كابينة تليفون في الطريق، وطلب يوسى ياجور كى يذكره بوعده الذى بذله بالأمس، لكن المفاجأة المذهلة جاءت، عندما طلب الرقم، فجاءه النداء الآلى عبر السماعة يقول ان التليفون معطل، وإنه خارج الخدمة!!

ولم يعد أمامه سوى الاتصال بذلك الرقم السرى الذى كانوا قد نبهوا عليه بعدم الاتصال به إلا للضرورة القصوى... وكانت

المفاجأة الأعنف، هى أن جرس التليفون راح يدق، ولا من ملبٍّ!!

كان الموقف بالنسبة اليه عصيباً، بل غير محتمل، فوقف في كابينة التليفون يستمع الى رنين الجرس على الطرف الآخر، ودموعه تنهمر بلا انقطاع!

كان الجاسوس يبكى!!

... ...

... ...

لم يكن بولارد يعلم أنه في تلك اللحظات بالذات، كان الاسرائيليون، مع تسرب النبأ، قد تخلوا عنه نهائياً... ففى ذلك الوقت من الليل، كان ثمة اجتماع في احدى غرف السفارة الإسرائيلية برئاسة رجل المخابرات الإسرائيلى «رافي ايتان» والذى كان يبدو في حالة عصبية، فلقد أصدر أوامره الى كل من يوسى ياجور - المسئول عن بولارد - والسكرتيرة «ياريت ايريب» التى كانت تتسلم من بولارد الوثائق في محطة غسيل السيارات مساء كل يوم جمعة... والملحق العلمى في السفارة... بمغادرة الولايات المتحدة على جناح السرعة!!

وعندما حاول ياجور أن يطمئن السيد ايتان أن بولارد لن يعترف، جاءه الرد حازماً قاطعاً:

«عليكم بمغادرة الولايات المتحدة الآن!!»

... ...

... ...

قبل أن يعود بولارد وزوجته الى البيت، وبعد المكالمتين الفاشلتين، لم يكن أمامه سوى حل واحد، وكما فعل شمشون في الأساطير اليهودية القديمة، قرر بولارد أن يهدم المعبد فوقه وفوقهم... و: «عليّ وعلى أعدائي يارب!»... اتخذ بولارد قراره بأن يذهب الى السفارة الإسرائيلية، ويطلب حق اللجوء السياسي!!

هكذا... علناً، ودون مواراة!

ولذلك، فلقد عاد الى كابينة التليفون، وأجرى اتصالاً بالسفارة، وقال إنه يهودي، وإنه يريد اللجوء السياسي لإسرائيل، فما كان من عامل التليفون، إلا أن حوله الى ضابط طلب منه أن يعاود الاتصال به في صبيحة اليوم التالي، وأن يحاول الافلات من الرقابة إن كان هناك رقابة... ثم أنبأه أن السفارة لا تفتح أبوابها قبل الساعة العاشرة صباحاً!

في الصباح، طلب بولارد أحد المحققين، قال إن زوجته مريضة وإنه في حاجة للتأخير ساعتين كي يصحبها الى المستشفي، ولقد وافق المحقق دون تردد، أدرك أن هذه هي الفرصة التي قد يستطيعون فيها معرفة الجهة التي كان بولارد يتعامل معها... كانت هناك عشرون سيارة تتناوب رقابة بولارد باللاسلكي حتى لا يلحظ أن سيارة معينة تسير خلفه...

ولقد كانت «آن» في ذلك الصباح مريضة حقاً، كانت آلام معدتها رهيبة نتيجة للتوتر العصبي الذي كانت تعاني منه قرابة ثمان وأربعين ساعة... قال لها بولارد أن عليها أن تجهز حقيبة

صغيرة تضع فيها الضروري من الأشياء ففعلت، ومع بعض الملابس الضرورية وضعت ألبوم صور زواجهما وشهادة الزواج واصطحبت معها قطتها وكانت حريصة ألا تنسى شهادة التطعيم الخاصة بالقطة، ذلك أنها كانت موقنة أنهما سوف يغادران الولايات المتحدة، أخذ بولارد زوجته الى الطبيب، وكان يعلم أنه متبوع وإن لم يستطع أن يحدد سيارة بعينها... بعد زيارة الطبيب كان عليه أن يعيد «آن» الى البيت وأن يضع نفسه تحت تصرف المحققين، لذلك... كان طريق العودة الى البيت، هو فرصته الذهبية... راح يسلك دروباً وطرقاً وأزقة ملتوية، ولأنه لم يكن يعرف بالضبط أي السيارات كانت تتبعه، فلقد جاءت لحظة ظن فيها أنه هرب من المراقبة، وكانت أمامه سيارة دبلوماسية إسرائيلية، فسار وراءها، حتى اذا اقتربت من السفارة،.فتح باب السفارة الكهربي، ودلفت السيارة ومن بعدها دخل بولارد بسيارته بعد أن عرفهم بنفسه عند البوابة!!

أغلق الباب الكهربي للسفارة، وماهي إلا دقائق، حتى كانت سيارات المراقبة تحيط المكان من كل جانب. ما إن توقفت سيارة بولارد داخل الفناء، حتى جاء ضابط أمن السفارة، فقدم بولارد نفسه إليه على أنه عميل ايتان ياجور وأنه يطلب حق اللجوء السياسي لإسرائيل!... قال الضابط:

«أهلاً بك في بيتك!»

ومن الملاحظ أن كلمة «البيت» هذه يستعملها رجال المخابرات

الإسرائيلية مع من يجندونهم من جواسيس اذا ما كان الحديث عن اسرائيل... وعلى كل، فما أن قال الضابط ما قال، حتى اجهشت آن بالبكاد وكانت هى الأخرى قد غادرت السيارة... غير ان الجميع، ما أن حانت منهم نظرة نحو الخارج، حتى أصيبوا بصدمة هزتهم حتى الأعماق، بما فيهم ضابط الأمن... فلقد كانت السفارة محاصرة بسيارات الـ «اف، بى، آى»، وكان الرجال في الخارج يقفون راصدين ما يحدث في الداخل من خلال الباب المفتوح!

كان طبيعياً أن يسقط في يد ضابط الأمن الذي استأذن من بولارد لدقائق يعود اليه بعدها... ولقد بدت تلك الدقائق لجوناثان و«آن» طويلة مثل دهور... ذلك أنهما كانا الآن مدركين أنهما أحرقا كل الجسور بينهما وبين الوطن، ولقد كان رجال الـ «اف، بى، آى» هناك يرصدون كل حركة وسكنة... وما أن عاد ضابط الأمن حتى اقترب من بولارد، وكان متجهم الوجه، وفي صوت مفعم بالانفعال، طلب منه مغادرة السفارة فوراً هو وزوجته... ولم يصدق بولارد، سأله:

«ماذا تقول؟!»

«لقد سمعت جيداً... عليك مغادرة السفارة فوراً!»

«هل تعرف من أنا؟!»

هكذا سأله بولارد فارتفع صوت الرجل وهو يشيرنحو البوابة، وكأنه يريد أن يُشهد من في الخارج بالحركة والصوت معاً:

«عليك بمغادرة السفارة فوراً أيها السيد!»

مثل فرخ مذبوح راح بولارد يترنح وهو يدور حول نفسه، بينما كانت «آن» تذرف الدموع في صمت، راح جوناثان يردد عليهم أسماء الضباط الذين عمل معهم، كان من الواضح أنه فقد أعصابه، بل فقد السيطرة على تفكيره، فإن مجرد ذكر هذه الأسماء، كان كفيلاً بطرده فعلاً من السفارة، كان بولارد الآن، في نظر الاسرائيليين، يتحول الى كارثة محققة... وعندما يئس بولارد راح يردد:

«أنا يهودي ومن حقي الحصول على الجنسية الإسرائيلية في أي وقت!»

زمجر ضابط الأمن مشيراً الى الخارج:

«للمرة الأخيرة، عليك أن تغادر أرض السفارة فوراً!»

ولم يكتف الضابط بالقول هذه المرة، بل راح يدفع بولارد الذي أحاط به الآن عدد من الرجال الأشداء، نحو السيارة... وانبجست عينا بولارد بدمع سخين، راح يبكي وهو يقول إنهم سوف يقتلونه فور مغادرته أرض السفارة...

ولكن بولارد غادر أرض السفارة، وما كاد يسير بسيارته بضعة أمتار، حتى وجد الطريق أمامه مسدوداً، فاستسلم في هدوء، وتم اصطحابه هو وآن، بينما صودرت السيارة، لاستعمالها، بما كان فيها، كدليل إثبات!

• • •

وبعـــد...

إن محاكمة بولارد لاتزال بالنسبة إليّ غامضة بعض الشيء، ربما لعدم إلمامي بالقانون الأمريكي... ذلك إنه صدر ضده حكم بالسجن نظير توجيه التهمة إليه واعترافه بهذه التهمة دون محاكمة علنية... لأن المحاكمة كانت كفيلة بأن تكشف العديد من الأسرار، وتعري العديد من الشخصيات!

وعلى كل... القضية تبدو مثالاً صارخاً للتجسس بين الأصدقاء، فإذا كانت إسرائيل، ليست مجرد صديق للولايات المتحدة، بل هي تابع يتغذى من المنبع هناك عبر المحيط، فما الذي يمكن قوله...

وبالرغم من كل شيء، فإن علينا أن نحذر عند قراءة هذه الكتب التي لا تصدر اعتباطاً، ولا حسب هوى كتّابها... أن بعض التأمل لهذه الكتب، لأشهرها بالذات، وبعض التأمل الى ما صاحبها من ضجيج، سوف يفتح لنا أبواباً ما كانت تخطر لنا ببال...

ولكن... هذا حديث آخر!

وجه الحقيقة الناقص

... ... الذي لا شك فيه، أن قضية التجسس بين الأصدقاء، رغم أنها نشاط شبه معترف به بين الجميع، تأخذ في بعض الأحيان شكلاً من أشكال الأزمات بين الدول الصديقة اذا ما كان الأمر يستحق اثارة أزمة... وعلى سبيل المثال، فإنه من غير المعقول أن تنتهي قضية جوناثان جي بولارد وزوجته «آن» عند حد القبض عليهما، كما أنه لا يمكن منطقياً أن تصمت الحكومة الأمريكية على ما حدث، حتى ولو كان الأمر ذراً للرماد في العيون!!

ولأن السيد «رولف بليتشر» صاحب كتاب «مساحة للكذب» لم يتعرض لما حدث بعد القبض على بولارد... إلاّ أن هناك مؤلفاً آخر - يهودي، وإسرائيلي الجنسية، وكان عميلاً للموساد لسنوات - هو السيد «فيكتور استروفسكي» الذي أصدر كتابه بعنوان «الطريق نحو الخديعة» أو «الخديعة» كما اصطلح مترجمو

العنوان الى العربية على تسميته، وفيه فصل بعنوان «في أمريكا فقط» تعرض فيه لعمليات التجسس التي تقوم بها الموساد في الولايات المتحدة الأمريكية، كانت قضية بولارد هي أولى القضايا التي تناولها في هذا الفصل!

يقول استروفسكي، أن جوناثان بولارد قبل أن يلتحق باتاك، كان يعمل في ادارة أخرى من ادارات المخابرات الأمريكية في سوتيلاند... وأن عمله في هذه الادارة - أيضاً - لم يكن مَرضياً عنه تماماً، فلقد حامت حوله الشكوك عندما سرّب بعض المعلومات السرية، الى الملحق العسكري في سفارة جنوب أفريقيا، مما دفع ضابط الأمن في هذه الادارة الى تحذيره - !! - تحذيراً حاسماً... والغريب والمدهش في الأمر - هذا كلام السيد استروفسكي - أنه بعد توجيه هذا التحذير إليه، صدر أمر بنقله من تلك الادارة ذات الأهمية المحدودة، الى «اتاك»!!

كان مبعث الدهشة عند الجميع، أن الوظيفة التي نقل اليها بولارد، كانت تتيح له الاطلاع على قدر أكبر بكثير من المعلومات البالغة السرية!!

فكيف؟!

كيف ينقل موظف حامت حوله الشبهات من ادارة أقل خطورة، الى ادارة دون شك يعتبر عملها أكثر خطورة... ثم... ثم من هو الذي أصدر هذا الأمر بالنقل؟!... وكيف؟!... و... ولماذا؟!

ان السيد استروفسكي لم يقدم لنا اجابة على هذا السؤال،

كما أننا نجد أنفسنا أمام لغز من العسير أن نجد له تفسيراً حاسماً... لا لشيء، إلا لأنه مهما تعددت أمامنا المراجع والروايات، فلسوف نجد دائماً، ذلك الجزء الغائب من وجه الحقيقة، إن نقل بولارد أمر يستحق التدقيق والتحقيق، تماماً، كما كان سكوت السيد «جيري آجي» على تجاوزات ذلك الجاسوس أمراً يبعث على الحيرة... غير أننا نستطيع أن نعمل الفكر قليلا فيما أمامنا من ظواهر، فلقد نصل الى تفسير أقرب ما يكون الى الحقيقة، إن كنا راغبين حقاً في مواجهة هذه الحقيقة مهما كانت قسوتها، خاصة اذا ما اثرنا سؤالاً يبدو لنا، بشكل ما، على قدر لا بأس به من الأهمية!

ذلك أننا ـ بداية ـ نجد أنفسنا أمام حقيقة أن بولارد لم تجنده مخابرات اسرائيل في بداية عام ١٩٨٤ كما زعم السيد «بليتشر»، ومعنى ذلك، إنه لم يكن مبتدئاً عندما تجسس لحساب الموساد في «اتاك»... دليلنا على ذلك، أنه قبل ذلك تجسّس لحساب جنوب أفريقيا وليس لحساب اسرائيل.

فإذا كان بولارد ـ كيهودي ـ يعتبر اسرائيل ـ كما قال لزوجته ـ «أهلنا» واذا كان يعطي لها باعترافه كل ولائه، فكيف يتجسس لحساب دولة أخرى؟!

إن الأمر يبدو لنا واضحاً كل الوضوح اذا ما انتبهنا الى تلك العلاقة الحميمة التي نشأت بين اسرائيل وبين حكومة جنوب افريقيا العنصرية ابان حقبة الستينات، ولم يعد سراً ـ الآن ـ أن

تعاوناً علمياً وعملياً وثيقاً قد تم بين الدولتين خاصة في مجال الأبحاث النووية... واذا كانت اسرائيل تملك الآن عدداً لابأس به من الرؤوس النووية، فإن هذا كان يستلزم - بالقطع - تجارب تجريها على قنابلها هذه... تجارب من المستحيل أن تتم في الأراضي الاسرائيلية... وهو ليس استنتاجاً أن نقول ان هذه التجارب كانت تتم في الصحراء الافريقية!!

إذن، فإن أصابع اسرائيل كانت مع بولارد هنا، كما كانت معه هناك!!

إن هذا يؤكد حقيقة أخرى، حاول كل من تناول قضية بولارد أن يخفيها ... وهي أنه كان جاسوساً محترفاً منذ أمد طويل، وأنه بالقطع قد لعب أدواراً أخرى لانعلمها قبل انكشاف أمره والقبض عليه... وأنه - فوق كل هذا - كان مدركاً أن هناك من يحميه، فاذا ما ثارت من حوله شكوك في مكان، وجد من ينقله الى مكان آخر يمارس فيه مهمته... ثم... ألا يبرر هذا ويفسر، ما قيل عن تعالي بولارد على الآخرين... وقلة أدبه كما قال رئيسه عنه؟!

هذه - على كل حال - ناحية!

أما الناحية الأخرى فهي طبيعة رد الفعل الأمريكي بعد القبض على بولارد!

ولقد كانت معاملة الرجل وزوجته بهذه الطريقة، وطردهما علناً من السفارة الاسرائيلية، كفيلة بأن تجعله ينهار انهياراً تاماً، وأن يتطوع، مادام الأمر كذلك، بالاعتراف، بكل شيء، بكل ما فعله،

بعلاقته مع الموساد، بأسماء الضابط الذي جنده، والضباط الذين تابعوه، والسكرتيرة التي كانت تتسلم منه الوثائق، وأسلوب التسليم والتسلم... و... و... والذي لاشك فيه، أن القبض على الرجل وزوجته بهذه الطريقة التي تشبه الفضيحة أو الجُرسة، قد أثار الكثير من التعليقات، بل والضجيج في الولايات المتحدة، بحيث أصبح التكتم على الموضوع أمام الرأي العام الأمريكي، أمراً مستحيلاً!

ولذلك... فلقد كان طبيعياً أن تطالب الحكومة الأمريكية بتفسير لهذا الذي حدث من حكومة اسرائيل التي كان يرأسها في ذلك الوقت السيد «شيمون بيريز»، وزير خارجية اسرائيل الآن!!

وبناء عليه - وعلى المستوى الدبلوماسي - فلقد أجرى المستر «جورج شولتز» وزير خارجية الولايات المتحدة وقتها، اتصالاً تليفونياً مع رئيس الوزراء الاسرائيلي، والذي بادر بالاعتذار علناً عما حدث... ففي تصريح لشيمون بيريز وقتها قال:

«ان التجسس على الولايات المتحدة يتعارض تعارضاً كاملا مع سياسة اسرائيل... وهذا الذى حدث، والمستوى الذي بلغه، كان خطأ فادحاً... وبناء عليه، فإن حكومة اسرائيل تقدم اعتذارها لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية!!»

ولم يكتف بيريز بهذا، بل أضاف: إن المسئولين عن هذا الخطأ سوف يحاسبون حساباً عسيراً، أما الوحدة التي قامت

بالعملية: «فلسوف يتم حلها بالكامل ونهائيا!!»... ولم ينس رئيس وزراء اسرائيل في ذلك الوقت أن يؤكد ان مثل هذا العمل، لن يتكرر مرة أخرى!!

فمن هم المسئولون عن العملية الذين تحدث عنهم السيد بيريز؟!

وماهي طبيعة هذه الوحدة التي وعد بحلها؟!

يقول فيكتور استروفسكي: ان الادارة التي قامت بتجنيد بولارد، ليست سوى ادارة صغيرة، يتراوح عدد العاملين فيها من عشرين الى ثلاثين شخصاً فقط وكان يطلق عليها اسم «لاكام»... وإنها أنشئت بغرض التجسس داخل الولايات المتحدة الامريكية فقط... ويضيف، أن نشاط هذه الادارة تبلغ سريته درجة تجعل من المستحيل على أي فرد خارجها، وحتى بعض القيادات الهامة في الموساد، معرفة مايدور داخلها، أو ماهي العمليات التي تقوم بها، أو حتى سفريات بعض أفرادها... ومن عجائب المصادفات، ان رئيس وزراء اسرائيل في ذلك الوقت ـ شيمون بيريز ـ كان هو المسئول ـ ابان حقبة الستينات ـ عن انشاء هذه الادارة، ووضع نظامها وأسلوب العمل بها!!!!

وعلى كل... فلقد كان هذا ما حدث على المستوى الدبلوماسي بين وزير خارجية الولايات المتحدة، ورئيس وزراء اسرائيل... وهو ـ إن أمعنا التفكير فيه قليلاً ـ كلام منمق وجميل وإن كان لايسمن ولايغني... والذي يهمنا هنا، هو رد الفعل على مستوى الاحتراف،

بمعنى... رد فعل المخابرات الامريكية، وهي جهة الاختصاص.

فما الذي قاله مدير الـ «سي. آي. ايه» في ذلك الوقت؟!

كان المدير هو المستر «ريتشارد هيلمز»، الذي، عندما سأله الصحفيون، أدلى بتصريح كان مذهلاً بكل المعاني، لكنه ـ من ناحية أخرى ـ كان واقعياً الى أقصى حد!

فعندما سئل عن رأيه في القضية قال:

«إنه لم يكن أمراً غير طبيعي أن تتجسس الدول الصديقة على بعضها البعض، فأنت تفعل كل ماتستطيع فعله... أما اذا ما قُبض عليك، فهذه هي الخطيئة الكبرى!!»

ومعنى هذا ببساطة، أن الرجل لم يجد في الأمر كله شيئاً غريباً فقط... وجه اللوم الى بولارد لأنه اكتُشف ووقع!!

أما السيد شولتز وزير الخارجية، فلقد قال للصحفيين في تصريح مختصر:

«لقد قبلنا تفسير اسرائيل، كما قبلنا اعتذارها!!»

... ...

... ...

هكذا انتهى الأمر، وحلت الأزمة بين الدولتين.

فهل نفذ الاسرائيليون وعدهم؟!

هل عوقب المسئولون عما حدث؟!

وهل تم فعلاً، حل تلك الوحدة نهائياً وكلياً كما قال رئيس الوزراء؟!

إن السيد استروفسكي يقدم لنا في كتابه، بداية، تحليلاً لطبيعة العلاقة بين هذه الوحدة التي تعمل في سرية مطلقة، وبين بقية الادارات في الموساد... ثم يبين لنا بعد ذلك كيفية التعامل مع المتعاطفين مع اسرائيل في الولايات المتحدة، أي الذين يعملون دون مقابل، من ناحية والتعامل مع «العملاء» من ناحية أخرى، والذين تتكشف جهودهم فيما بين واشنطن العاصمة، ونيويورك، هاتين المدينتين اللتين تعتبرهما الموساد «ملعباً خاصاً لها» على حد قوله!

بعد ذلك يقول: إن «لاكام» التي وعد بيريز بحلها نهائياً، لم تحل في الواقع... وإنما كل ما حدث، هو أنهم أعطوها اسماً جديداً، وظلت تمارس نشاطها المعتاد!

وهو يتطوع بأن يحدد طبيعة هذا النشاط الذي تمارسه تلك الوحدة التي أصبح اسمها «أل»!

فهو يقول ان مهمتها في الواقع، ليس التجسس على نشاطات الولايات المتحدة، ولكن المهمة الرئيسية لها، هي جمع المعلومات حول الدول العربية، خاصة فيما يتعلق بالتسليح، ثم... كل ما يمكن جمعه عن منظمة التحرير الفلسطينية!!!

فإذا ما رجعنا الى الوثائق التي سرقها بولارد من «اتاك» وأمد بها السفارة الاسرائيلية، سوف نجد أن غالبيتها العظمى

كانت تخص نوعية السلاح الذي تشتريه الدول العربية من الولايات المتحدة!

• • •

واذا كان لابد لنا من العودة الى هذا النوع من الكتب، فإننا نعود مرة أخرى كي نحذر مما يجيء فيها... أن كل ما يقوله استروفسكي يقود الى هدف واضح ومحدد ولاشك فيه، هدف سوف نحدده معاً، عندما نعود الى هذا الكتاب مرة أخرى، كي نناقش الأسلوب الذي صدر به!

ولعل أشهر هذه الكتب التي شغلت الرأي العام العالمي لشهور طويلة، هما كتابا «صائد الجواسيس» لرجل المخابرات البريطاني «بيتر رايت»، ثم ذلك الكتاب الذي أصدره الصحفي الأمريكي الشهير «بوب وودوارد»، والذي اشتهر كتابه باسم «القناع»، رغم أني أرى أن هذه الترجمة ليست دقيقة بالقدر الكافي، فالترجمة الأكثر دقة لكلمة «Veil» وهي عنوان الكتاب، هي «برقع»... وعلى ذلك، يصبح اسم الكتاب هو «البرقع... الحروب السرية للمخابرات الأمريكية»... ذلك أن كلمة «قناع» توحي بإخفاء معالم الوجه كلها، في حين أن كلمة «برقع» توحي بذلك الخمار الذي يضفي على معالم الوجه بعضاً من الغموض، وإن كان لايخفيها بالكامل!

وربما كانت هناك ملحوظة أراها هامشية فيما يختص بكتاب «صائد الجواسيس»، ذلك أن هذا العنوان بالذات، لم يكن الأول

الذي صدر به كتاب، بل سبقه بسنوات طويلة، وبالتحديد في عام ١٩٥٢، كتاب يحمل نفس العنوان كتبه رجل المخابرات البريطاني ليفتنانت كولونيل «أوريستيبي بنتو» والذي قيل عنه وقتها، إنه «أعظم رجل أمن على قيد الحياة»... وفي هذا الكتاب، يحكي الرجل تجاربه مع الجواسيس لسنوات طويلة، لعل أهمها سنوات الحرب العالمية الثانية!

وعلى كل...

فعندما صدر كتاب «بيتر رايت» في عام ١٩٨٧، صاحبته ضجة اعلامية شملت الكرة الأرضية كلها، وترجم الى أكثر من خمسين لغة... ولا نبالغ، اذا قلنا، إن الكتاب صنع نوعاً من الصدمات لدى الكثيرين الذين تعودوا من الكتّاب البريطانيين، أو من رجال المخابرات البريطانية بالذات، تلك الصرامة والالتزام الذي اشتهر به مواطنو المملكة المتحدة... وكان سبب الصدمة، أن الكتاب حوى من الأسرار عن جهاز المخابرات البريطاني، ما لم يكن يتصور أحد أن يذاع حتى ولو كان بعضه معروفاً... ولقد بلغ الأمر ذروته، عندما أصدرت السيدة «مارجريت تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا في ذلك الوقت، والتي أطلقوا عليها لقب «المرأة الحديدية»، قراراً بمنع طبع الكتاب في المملكة المتحدة، كما شمل القرار منع دخول الكتاب أيضاً الى الأراضي البريطانية!

ونحن هنا، بطبيعة الحال، لن نتعرض لما جاء في هذين الكتابين اللذين شبعا تحليلاً وتعليقاً من عشرات الكتاب

والمتخصصين في العالم أجمع، ذلك أن ما يهمنا بالدرجة الأولى، هي الظاهرة في حد ذاتها... ظاهرة صدور هذه الكتب... و... ولماذا تصدر أساسا!

إن كتاب صائد الجواسيس لم يكن يتعرض لبعض العمليات التي قامت بها المخابرات البريطانية، إنما كان يكشف النقاب عن طبيعة العمل داخل هذا الجهاز، ويؤكد ذلك الذي أشيع من قبل، وظل حتى صدور الكتاب محل شك، أو محل بحث... كان أغرب ما جاء في هذا الكتاب، أن مجموعة من قيادات المخابرات البريطانية كانت تعمل لحساب السوفييت!

ويصبح السؤال المطروح أمامنا: ألم تكن المخابرات البريطانية المشهود لها بكفاءة لاشك فيها، بقادرة على منع طباعة هذا الكتاب في أي مكان في العالم؟!

إن الجواب الذي أراه منطقياً أكثر من غيره، إنها كانت بالقطع قادرة على ذلك حتى ولو طبع الكتاب في الولايات المتحدة، أو في استراليا وهي إحدى دول الكومنولث البريطاني!

كانت تستطيع، لأن أي جهاز مخابرات يملك من الأساليب والحيل الكفيلة بتحقيق مثل هذا الهدف، ولكن - وهذا هو الأهم - لأن السيد «رايت» لم يكن مواطناً بريطانياً عادياً، بل كان - قبل ذلك - عضواً قيادياً في هذا الجهاز الذي عمل على فضحه، بل ربما - حسب تعبير قيل وقتها - على تعزيقه من الداخل!

فمن بديهيات العمل في هذا الحقل، أن رجل المخابرات، ليس

فقط ملتزماً بهذا القسم الذي يؤديه قبل انضمامه لهذا الجهاز أو ذاك، ولكن... لأن رجل المخابرات لايفقد علاقته بجهازه حتى ولو اعتزل العمل فيه... إن العلاقة بين ضابط المخابرات وجهازه، ليست مثل العلاقة بين موظف حكومي أحيل الى المعاش وطبيعة وظيفته... فالعلاقة مع الأول، تبدو عضوية، بل ربما أبدية ولا فكاك منها... فكيف؟!

معنى هذا... أن السيد «رايت» ـ من وجهة نظر خاصة ـ قد تلقى الضوء الأخضر قبل أن يخط كلمة في هذا الكتاب، وبالتالي، فإنه مما يبعث على التساؤل، أن تتخذ السيدة تاتشر مثل هذا الموقف المتشدد من الكتاب بمنع طباعته في بريطانيا، بل وأن تمنع دخوله إليها، مما حدا برجال الجمارك في المطارات والموانىء، الى التشدد في تفتيش القادمين، سواء كانوا سائحين أم مواطنين عائدين... ولقد ظل هذا يحدث، حتى بعد مرور عامين على صدور الكتاب، في الوقت الذي كان في مقدور أي مواطن بريطاني، أو حتى سائح مثلي، أن يحصل على الكتاب بمجرد حوالة بريدية يرسلها الى الناشر في أمريكا، كي يأتيه الكتاب بعد أسبوع واحد فقط... ولقد فعلت هذا عام ١٩٧٩، وحصلت على الكتاب وأنا في لندن!

فلماذا منعت السيدة تاتشر الكتاب؟!

ولماذا كل هذا الضجيج؟!

ولماذا لم يقدم السيد رايت الى المحاكمة بتهمة إفشاء أسرار

والحنث بقسم أدّاه؟!

ولكن... الذي لاشك فيه، أن ما فعلته رئيسة وزراء بريطأنيا قد ساهم مساهمة فعالة في رواج الكتاب حتى ضربت مبيعاته رقماً قياسياً حوّل السيد رايت الى مليونير، ومكنه من اقتناء مزرعة للخيول في استراليا، التي لازال يعيش فيها حتى الآن؟!

ولقد نجد من يرد علينا بأن الديمقراطية، في دول أوروبا الغربية، تعطي الحق للمواطن في أن يقول رأيه كما يشاء، وأن يكتب مايشاء... ولكن هذا القول بالقطع مردود عليه، بأن هناك دائماً سقفاً للحرية اسمه «الأمن القومي»... ألم تكن معارضة تاتشر حماية للأمن القومي؟!

غير أننا ـ بطبيعة الحال ـ لانستطيع الزعم بأن هذا الكتاب صدر بلا هدف، واذا كان الهدف هو كشف هؤلاء الذين كانوا يعملون لحساب الاتحاد السوفيتي، فإنه من البديهي أن الاتحاد السوفيتي يعلم ـ أكثر من السيد رايت يقيناً ـ من هم عملاؤه الحقيقيون... وهكذا نجد أنفسنا في طريق مسدود، والسؤال يطرح نفسه علينا بإلحاح:

لماذا صدر مثل هذا الكتاب؟!!

ولماذا صاحبته كل تلك الضجة الإعلامية؟!

الجواب هو أن الكتاب بالقطع يحمل رسائل ما، رسائل الى من يهمهم الأمر حول أمور من الصعب على من كان مثلي أن يتكهن بها وإلا أصبحت كمن يعطي لنفسه قامة أطول بكثير من

قامته... ولكن، بالرغم من ذلك، فإننا لانستطيع أن نلغي عقولنا، واذا كانت هناك رسائل الى من يهمهم الأمر... فلماذا لايكون الكتاب قد صدر خصيصاً كي يطلق سحابات من دخان وضباب يحجب الرؤية عن الذين يبحثون عن الحقيقة، حتى لاتنكشف أمور بعينها؟!

بالتحديد...

ألم تجب الأحداث المروعة التي وقعت بعد صدور الكتاب بسنوات جد قليلة على مثل هذا التساؤل؟!

أليست هذه الأحداث دليلاً على ما نحاول الوصول اليه بالاستنتاج؟!

مجرد سؤال، أكذب، لو أني قلت إني أملك الاجابة عليه.

إسرائيل تحاول الاشتراك في الزفة

يحقق فيلم «جي. ف. ك» أو «جون فيتزجرالدكيندي» قصة اغتيال الرئيس الأمريكي في مدينة دالاس في الستينات من هذا القرن... ولقد كان كيندي واحداً من الرؤساء الامريكيين الذين تركوا - رغم قصر مدة رئاسته - بصمات واضحة وشديدة التأثير على السياسة العالمية من ناحية وفي نفوس الشعب الامريكي من ناحية أخرى، الى الحد الذي جعل البعض يقول إن انتخاب الرئيس «بيل كلينتون» - الرئيس الحالي للولايات المتحدة الامريكية - واكتساحه في الانتخابات الأخيرة للرئيس جورج بوش، إنما يرجع الى ذلك التشابه بينه وبين كيندي، من حيث الشباب، والطموح، والأفق الواسع، والبعد عن التقليدية والمحافظة... غير أن الفيلم في مجمله يحذر من طغيان «الأجهزة» وتحالفاتها السرية المريبة... ذلك أن أجهزة المخابرات، بطبيعة عملها، تعمل في الظلال أو الظلام... وهي، بناء عليه، ومع الأيام،

تخلق لنفسها عالمها الخاص وقوانينها وأعرافها، كما أنها تنفذ مآربها عن طريق تحالفات غامضة، واستعمال لأدوات أقل ما يمكن أن توصف به، كما جاء في الفيلم، فاسدة فساداً لا صلاح له!!

ان فيلم «جي. ف. ك» الذي عرض في القاهرة تحت عنوان «اغتيال كيندي»، يشير بأصابع الاتهام الى المحافظين في المجتمع الامريكي، والذين هم أصحاب المصلحة - أي أصحاب النفوذ ومصانع السلاح والاحتكارات والمال - مع المخابرات المركزية الامريكية «سي. أي. ايه»، في اغتيال واحد من أعظم رؤساء الولايات المتحدة في القرن العشرين، لمجرد أنه ألمح الى أنه سوف يتخذ بعض الخطوات التي قد تؤثر على مصالحهم، أو التي يرون أنها تقف في طريق المزيد من الأرباح والسلطة والمال!

غير أن هذه الأجهزة برغم ما تمتلكه من سطوة وسلطان، تحتاج بين الحين والحين، الى الاعلان عن نفسها، وقدراتها... أو تحتاج على الأقل، الى تنبيه البعض الى ما تستطيع القيام به كنوع من الترهيب أو الترغيب، وهي من أجل هذا تعمل على تسريب بعض المعلومات هنا أو هناك، وهي معلومات تحوي بطبيعة الحال، حقائق يعرفها الآخرون جيداً، ولكنها تلقي بظلالها على أهداف تُدس دساً بين ثنايا كتاب أو فيلم، أو حتى مقالة في صحيفة مرموقة!!

وكما صدرت الطبعة الاولى من كتاب «صائد الجواسيس» في

عام ١٩٨١، كذلك صدرت الطبعة الأولى من «القناع» بعد الكتاب الأول ببضعة أشهر، كي تخطف الأضواء منه، وتتربع على عرش الشهرة لشهور طويلة... فهل صدر هذا الكتاب الأخير صدفة في ذلك التوقيت؟!... سؤال لابد وأن نطرحه ثم نقول: إنه في ظننا لم يكن صدوراً عفوياً أي أنه صدر في وقت كان المطلوب فيه صرف الأنظار عن الكتاب الأول بعد أن حقق الأهداف التي كانت مطلوبة منه... ولقد حقق كتاب وود وارد نجاحاً ساحقاً... ذلك إنه لم يكشف أو يفضح فقط، أسلوب العمل وكيفية اتخاذ القرارات في المستويات العليا للادارة الامريكية، ولا كيفية اختيار الأشخاص، بل تعدى هذا كله الى الكشف عن أسلوب تدخل الولايات المتحدة الأمريكية ـ عن طريق مخابراتها ـ في مصائر الأمم والشعوب... فلقد تناول السيد «وود وارد» في كتابه التفاصيل الدقيقة للتدخل الامريكي في «نيكاراجوا» مثلاً، وكيفية تأسيس جماعة «الكونترا» التي كانت تناهض الحكم في هذه الدولة في أمريكا الجنوبية، بل تناول كيفية تسليحها وتمويلها وتدريب أفرادها ورسم الخطط والامداد بالمال و... و... ولايتوقف الأمر عند هذا الحد، بل هو يتعرض أيضاً للتدخل الامريكي في الهند الصينية، والشرق الأوسط إبان الازمة اللبنانية، الى شمال افريقيا حيث القصف الامريكي لليبيا... ثم هو ينتقل بعد ذلك الى أفغانستان وتمويل المجاهدين، وإمدادهم بالسلاح، ثم يعرج على الصراع بين المخابرات السوفيتية وقتها والـ «سي. أي. ايه»... و... واذا أنت أمام كم هائل ومذهل من المعلومات يشمل الكرة

الأرضية التي لابد سوف تبدو لمن يقرأ الكتاب، إنها تحولت الى ملعب خاص للمخابرات المركزية الامريكية... ولاينسى السيد وود وارد أن يعرج الى الحديث عن هؤلاء المتعاملين مع المخابرات الامريكية، أو العملاء لها من كل جنسيات الأرض، مما دفع ناشري احدى الترجمات العربية لهذا الكتاب، الى القول في كلمة تصدير له، صراحة، إنهم «حذفوا»: «... ... ... بعض المقاطع التي وجدنا فيها دساً من المؤلف أو الوكالة!»، وهم يقصدون وكالة المخابرات المركزية الامريكية، وعلاقة بعض الشخصيات العربية بها، وكان الأمر يصبح «دساً» عندما يتناولنا فقط، لكنه في غير ذلك، وكما جاء في نفس التصدير: «... ... معلومات علينا أن نعيها وأن نتدارسها»!!

ماعلينا!

كانت أهمية الكتاب الجديد تكمن في أن المؤلف كان قد التقى ـ كما جاء في مقدمة الكتاب ـ بحوالي ٢٥٠ شخصية منهم ـ على حد قوله ـ خمس عشرة شخصية من الشخصيات الهامة، أي المؤثرة في السياسة الأمريكية، سواء من العاملين في البيت الأبيض، أو من أعضاء الكونجرس، أو من ضباط وكالة المخابرات المركزية.. واذا كان البعض قد طلب عدم ذكر اسمه، فان أهم هذه الشخصيات على الإطلاق، هو السيد «وليم كيسي»، الذي كان وقت وضع الكتاب مديراً للـ «سي. آي. ايه»!

يقول بوب وود وارد، إنه التقى بالسيد كاسي: «... ... أكثر

من أربعين مرة فيما بين لقاء وحوار واختلاف واتفاق، ولقد تحدثنا في مكتبه وفي منزله، وفي رحلات الطيران، وفي الأركان أثناء الحفلات أو دعوات العشاء... ثم في المستشفى أثناء مرضه الأخير، وعبر أسلاك التليفون!»

ولكي تتضح لنا أهمية هذه اللقاءات، لابد لنا أن نعرف أن كيسي لم يكن مديراً لـ «سي. أي. ايه» فقط، وإنما كان صديقاً شخصياً الى رئيس الولايات المتحدة وقتها «رونالد ريجان»، كما كان مديراً لحملته الانتخابية التي فاز فيها على سلفه السيد «جيمي كارتر»!

ومن يقرأ هذا الكتاب الذي يقع في أكثر قليلاً من ٥٤٠ صفحة من القطع الكبير، سوف يجد نفسه ـ بالتأكيد ـ وقد استدرج الى غابة شديدة الكثافة من الأحداث والوقائع والشخصيات والمعلومات والحوارات التي تتفق مع بعضها أحياناً وتتناقض مع بعضها في أحيان أخرى، لكنها جميعا تصب في النهاية في مصب واحد، وتسير نحو هدف واحد، وهو التركيز على تلك العمليات البالغة الخطورة التي تقوم بها المخابرات الامريكية في مشارق الأرض ومغاربها، في صحاريها ووديانها وجبالها وسهولها ودولها ومع شعوبها... إنك، وأنت تقرأ الكتاب، وتجري عيناك على السطور، ستشعر كم هي صغيرة هذه الكرة الأرضية وكأنها تحولت الى ملعب خاص للسوبرمان الامريكي!!

حقاً... إننا لانستطيع أن ننكر أن بعض ما قيل حقيقي تماماً،

لكن مجرد قول الحقيقة أو كشف الستار عن مثل تلك الأسرار، واعلانها على هذا النحو، يحمل من الرسائل ما لايمكن أن يخفى على أحد، خاصة بالنسبة لبعض العمليات ـ مثل إيران كونترا ـ أو... أو بعض الشخصيات التي قدر لها أن تتحكم في مصائر الشعوب والأمم!!

وكان لابد وأن تثور ضجة!!

وكان لابد وأن يعترض البعض، ويكذّب البعض، وينكر البعض، واذا كان رد الفعل في الولايات المتحدة، قد اختلف عنه في بريطانيا، فلم يصادر السيد ريجان الكتاب ولم يمنع طبعه في امريكا كما فعلت السيدة تاتشر في بريطانيا مع كتاب «صائد الجواسيس»، إلا أن النتيجة كانت واحدة في الحالتين.

فعندما سأل الصحفيون الرئيس رونالد ريجان عن رأيه في كتاب وود وارد، كان رده غريباً كل الغرابة، فلقد قال:

«إن هذا الكتاب فيه الكثير من التخاريف والخيال!!»

كانت الإجابة مبهمة، وكان الرد قاطعاً بعدم نفي كل ما جاء في الكتاب!

بل... إن المعنى الحقيقي لاجابة السيد ريجان، أن الكتاب يحوي ـ على الأقل ـ بعض الحقائق !!

وبصرف النظر عن ردود أفعال بعض المسئولين في الـ «سي. آي. ايه»، فلقد أيد البعض منهم ما جاء في الكتاب، وأنكر البعض

الآخر، ورقص البعض الثالث على السلم!!

لكن الغريب في الأمر، هو ذلك التصريح الذي أدلت به السيدة «صوفي كاسي» أرملة المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية، والذي كان قد توفي قبل صدور الكتاب... فلقد قالت هذه السيدة، إن المستر وود وارد لم يلتق بزوجها في البيت، ولم يزره في المستشفى أثناء مرضه كما ادعى، فلقد كانت هناك دائماً، وهي لم تره ولم تشاهده... بل - وهنا العجب - لقد تطوعت - دون أن يطلب منها ذلك - بالقول: إن زوجها لم يناقش معها، ولا مرة، قضايا تخص العمل، كما أنه لم يكن أبداً ممن يبوحون بأسرار عملهم لمخلوق أياً من كان هذا المخلوق!!

وكانت نتيجة كل هذا النفي، وكل هذا الاثبات... أن يروج الكتاب، وأن تتابع الصحف أخباره، وأن تمتلىء أعمدتها بالتعليقات، وأن يسعى البعض وراء حقيقة هذه الواقعة أو تلك...

باختصار... تغير الأسلوب في الولايات المتحدة عنه في المملكة المتحدة، لكنه حقق نفس الهدف... ففي أسابيع قليلة، كانت المبيعات قد ضربت كل الأرقام القياسية في التوزيع!!

وكانت الرسالة - بالقطع - قد وصلت الى من يهمه الأمر!

... ...

... ...

كانت اسرائيل قد تعودت منذ الستينات، أن تصدر بين الحين

والحين كتاباً يتحدث عن بعض العمليات التي يقوم بها جهاز «الموساد» هنا أو هناك، ولقد كانت أغلب هذه العمليات، بطبيعة الحال، مع الدول العربية... لكن الظاهرة الملفتة للنظر حقاً، أن هذه الكتب كانت تصدر دون أن تحظى باهتمام يذكر... وربما كان السبب في ذلك، هي تلك المبالغة التي كانت تتسم بها، وربما كان ذلك التضخيم الساذج الذي يحّول عمليات عادية للغاية، الى عمليات أسطورية!..

وعلى سبيل المثال، فلقد صنعت اسرائيل من الشاب اليهودي المصري الأصل «الياهو كوهين»، أو «إيلي كوهين»، الذي زرعته المخابرات الاسرائيلية - ابان الستينات - في دمشق تحت اسم «كامل امين ثابت»، والذي اكتشف بعد عام ونصف العام فقط، وحوكم، وحكم عليه بالاعدام شنقاً، وشنق بالفعل... صنعت من هذا الشاب بطلاً قومياً، وأطلقت اسمه على الشوارع في المدن الاسرائيلية المختلفة، في حين أن عملية إيلي كوهين، تعتبر من العمليات الفاشلة تماما، بدليل سقوط الجاسوس وانكشاف أمره بعد أقل من عامين!!

وحتى ذلك الفيلم الذي أنتج لتسجيل عملية «عنتيبي»، والذي كان الغرض منه هو القول بأن يد اسرائيل قد تطول حتى تصل الى دولة في قلب أفريقيا تبعد عنها آلاف الأميال... ولقد حشدت اسرائيل هذا الفيلم كل ما يمكن من امكانيات تحقق نجاحاً ساحقاً، كما أسندت دور البطولة في الفيلم الى نجمة يتهافت الناس لمشاهدة أفلامها في جميع أنحاء العالم، وأعني بها

«اليزابيث تيلور»... ورغم كل هذا، جاء الفيلم ساذجاً متهافتاً وكأنه من صنع مجموعة من الهواة لاخبرة لهم، وسقط الفيلم لأن العملية نفسها لم تكن بالضخامة التي أرادت لها اسرائيل أن تبدو بها... ووصل الأمر أني سمعت ـ لست واثقاً تماماً من الخبر وان كان البعض قد أكده لي ـ أنهم أعادوا تصوير الفيلم مرة أخرى وصنعوا منه نسخة جديدة... لكنه أيضاً لم ينجح!!

وبدون أن نتحلى بفضيلة التواضع على حساب الحقائق المجردة... فلقد شهد هذا العقد أيضا ـ عقد الثمانينات ـ الكشف لأول مرة عن عملية الحفار الاسرائيلي «كينتنج»، ذلك الحفار الذي دمرته المخابرات العامة المصرية في ٨ مارس ١٩٧٠ في أبيدجان عاصمة ساحل العاج... كانت العملية من تلك العمليات البالغة الجرأة والدقة في نفس الوقت، كانت اسرائيل قد اشترت الحفار للتنقيب عن البترول على شواطىء سيناء، فدمرته مصر قبل أن يدخل البحر الأحمر، وفي ميناء دولة كانت تعتبر من أخلص أصدقاء اسرائيل في افريقيا في ذلك الوقت... وتحدث العالم كله عن تدمير الحفار عدا مصر، التي التزمت الصمت حتى كان عام ١٩٨٥.

وفي العام التالي مباشرة ـ أي في أوائل عام ١٩٨٦ ـ كشفت مصر النقاب عن واحدة من أهم عمليات المخابرات في هذا القرن، وهي عملية «رأفت الهجان» الذي عاش في اسرائيل ـ كمواطن يهودي ـ طيلة عشرين عاماً دون أن يُكتشف، ثم اعتزل، ثم توفي بعد اعتزاله بخمس سنوات، ثم كشفت مصر قصته بعد

كان المزعج بالنسبة لاسرائيل، أن قصة الهجان لم تنفجر في مصر والدول العربية فقط، بل انفجرت في العالم كله... ذلك أنه على المستوى التكنيكي البحت، كان لابد للآخرين من أن يعرفوا ويدرسوا ويحللوا ويتقصوا ويفهموا، ولقد أنكرت اسرائيل في البداية وجود مثل هذا الرجل، ثم التزمت الصمت، ثم اعترفت بالواقع، عندما قال «ايسر هارئيل» - أشهر من أشرف على جهاز الموساد - باختصار: «ليس النجاح حكراً علينا وحدنا!!!»

وسط كل هذا، كان لابد لاسرائيل أن تقول شيئاً!

وكان عليها أن تتخير الوقت المناسب!

ولم يكن مناسباً بطبيعة الحال أن تتحدث وسط اللغط الذي أحدثه نشر كتاب «رأفت الهجان» في ١٩٨٦ وما بعدها، ووسط اللغط الذي أحدثه كتاب «صائد الجواسيس» و«القناع» في ١٩٨٧!

وعلى كل حال، فلقد كان مهماً - في مثل هذا الجو الصاخب - من شيء يثير الانتباه، ويشد الناس الى الجديد الذي تقدمه اسرائيل أو غيرها!

بعد عام أو عامين، بالتحديد في أواخر عام ١٩٨٩ وأوائل عام ١٩٩٠، كان الجو - في هذا الحقل - يبدو هادئاً، وكانت الفرصة، بالقطع، مناسبة عندما تسربت الى الصحف الكندية أخبار عن كتاب يكتبه رجل مخابرات اسرائيلي، انتوى أن يفضح الموساد

ـ!!!ـ وأن ينشر في كتابه هذا، بعضاً من عملياتها القذرة، تلك العمليات التي تتسم بالقسوة والغدر وإسالة الدماء... بدأت الأخبار تترى في تخطيط محكم شد انتباه المهتمين بمثل هذا الأمر، حتى اذا عرف اسم المؤلف، وهو «فيكتور استروفسكي»، بدأ الأمر يأخذ مساراً آخر!

... ...

... ...

كتب ناشر كتاب «الطريق الى الخديعة» على الغلاف الداخلى عن المؤلف يقول: «... ... إن الطريق الى الخداع، هو التاريخ المتفجر للسيد استروفسكى داخل الموساد!»

ان مثل هذه الجملة، التى اقتطفتها من سياق عمود بطول الكتاب، تعطى ذلك الايحاء الغريب بأن المحتويات لابد رهيبة... ولقد كانت بعض هذه المحتويات قد بدأت تتسرب الى الصحف قبل ظهور الكتاب في الشهور الأولى من عام ١٩٩٠، بل، وبتخطيط دقيق، سرب فصل من أهم وأخطر الفصول، أو بعضاً منه، الى الصحف، وهو الفصل الخاص بذلك التفجير الفدائى الذى تم في بيروت عام ١٩٨٣، وراح ضحيته ٢٤١ من رجال المارينز الأمريكيين!

كان الفصل مذهلاً بكل المعانى.

فلقد قال استروفسكى، أن «الموساد»، كانت على علم بتلك العملية الفدائية قبل أن تقع، وإنها حجبت الأمر عن الولايات المتحدة، حتى تزيد من الجفاء بينها وبين العرب!!

وكانت الصدمة ـ في أمريكا ـ مروعة!

وبدأت التمثيلية باحتجاج الحكومة الإسرائيلية وطلبها من الحكومة الكندية أن تمنع نشر الكتاب في كندا... لكن الرد جاء من الحكومة الكندية سلبياً، ولأن استروفسكى من أصل كندى، فلم يكن من حق الحكومة أن تمنع طبع الكتاب!

وبالتأكيد... كانت اسرائيل تعرف ذلك وتعلمه يقيناً...

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فلقد أُعلن، ونشر في صحف العالم كله، أن الموساد يطارد السيد استروفسكى، الذى قيل وقتها، إنه فر من وجه رجال كانوا يطلبونه للمحاكمة لافشاء أسرار ليس من حقه أن ينشرها... وقيل وقتها أن الرجل هرب الى غابات كندا الجليدية فراراً من وجه مطارديه!..

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد...

فلقد نشر ان الحكومة الاسرائيلية تزمع رفع قضية أمام المحاكم الكندية على ثلاثة:

فيكتور استروفسكى، المؤلف.

كلير هوى.... الكاتب الذى صاغ الكتاب!

والناشر الذى دفع به الى المطبعة!

كان الأمر مثيراً للغاية، واستعد هواه مثل هذه الاثارة لتلقف الكتاب الذى تطارد الموساد مؤلفه... وكان الغريب، وربما المضحك في الأمر، أن الحكومة الاسرائيلية لم تكتف برفع قضية على الشركاء الثلاثة، وإنما، طالبت أيضاً بأن تشارك في أرباح الكتاب بصفتها مالكة للمادة التى يحتويها!!

كادت الزفة أن تكتمل تماماً، وبدأت المطبعة في إخراج مئات الألوف من النسخ لتوزيعها في جميع أنحاء العالم، عندما انفجر في العالم حدث لم يكن متوقعاً على الاطلاق!

في ذروة الاثارة، والناس تستعد لاستقبال الكتاب... هاجم صدام حسين الكويت، واحتلها!!

• • •

كان طبيعياً أن تنسحب كل الأضواء من كندا حيث الكتاب التعس للسيد استروفسكى، وتتحول المصابيح الكاشفة الى الشرق، حيث أزمة من أعتى الأزمات التى مرت، لا بالأمة العربية وحدها، بل بالعالم كله!

ومات الحديث عن الكتاب!

وبارت بضاعة السيد استروفسكى الذى كان يمنى النفس ببضعة ملايين من الدولارات!

وانتهت أزمة الخليج الى ما انتهت إليه!

وانقضت الشهور... وعندما دفن الموضوع برمته، لم تعد اسرائيل ثائرة، ولم ترفع قضية لا على استروفسكى، ولا على الكاتب الذى صاغ كتابه، ولا على ا لناشر.

لكن الغريب في الأمر... أن السيد استروفسكى لم يعد هارباً، عاد الى الظهور في مونتريال، وعاد الى حياته الطبيعية، وتأتى الأخبار من هناك، أنه أصبح يرتاد، بشكل ما، مجتمع الجالية العربية التى يتعاظم عددها في كندا عاماً بعد عام... وهو، اذا ما

سئل، راح يردد أكاذيبه على الأسماع.

ولكن...

قبل كل هذا...

ماهى أكاذيب السيد استروفسكى؟!

سؤال لابد له من إجابة، حتى تكتمل الصورة!

إننا نقدمٌ للأمريكيين أكثر مما يقدمون لنا

لعل أول ما يلفت النظر في كتاب «الطريق نحو الخديعة» للسيد فيكتور استروفسكي، هو أن الفصل الذى يبدأ به الكتاب، والذى يحمل عنوان «مقدمة» أو «تمهيد»، والذى يعطيه بعد هذا عنواناً فرعياً هو «عملية أبوالهول» ليس مقدمة، وليس تمهيداً بأى معنى من المعانى.

ذلك أن المقدمة تعنى بالضرورة، تمهيد الطريق أمام القارىء كى يدخل الى الموضوع وهو على بينة منه، أو تشرح بعض الجوانب التى قد تغيب عن القارىء، أو أن الكاتب يريد أن يضع هذه الجوانب تحت الضوء بالنسبة لمن يتناول كتابه أو يقرأه... وهذا بالطبع - في نوع معين من الكتب - يبدو ضرورياً فهو تعريف من الكاتب للقارىء، ربما بالنسبة لنفسه أو لموضوعه... وهو في كلا الحالتين يقرب المسافة فيما بينهما مما يعطى القارىء متعة أكبر وفائدة أعظم!

غير أننا في كتاب السيد استروفسكى، نجد أنفسنا أمام

ظاهرة مثيرة للدهشة... ذلك أن الكاتب هنا، يمهد لمحتويات الكتاب بتلك العملية التى قامت اسرائيل فيها، بتدمير المفاعل النووى العراقى يوم ٧ يونيو عام ١٩٨١، وهى عملية تبدأ في باريس، حيث تتبع الموساد عالماً من علماء الذرة العراقيين هو السيد «بطرس بن حليم»، وتسير الى حيث اغتيال عالم الذرة المصرى دكتور «يحيى المشد» في فندق المريديان في عاصمة النور... وتنتهى بالطائرات الإسرائيلية وهى تقلع من إحدى القواعد في طريقها الى العراق لقصف المفاعل الذرى هناك، وعودتها الى قواعدها سليمة!!

وهي عملية سوف نعود اليها تفصيلاً في فصل قادم... لا لكى نناقش ما قاله فيكتور استروفسكى فقط، ولكن... لكى نقارن بين ما ادعاه وبين ما قام به صحفي مصرى، هو الأستاذ عادل حموده، أوجعه اغتيال العالم المصرى يحيى المشد، فطار الى عدة عواصم غربية، منها واشنطن، كى يحقق الأمر بنفسه، ويدعم كل ما قال به بمستندات رسمية، غير قابلة للمناقشة!!

وعلى كل حال... فإن كتاباً يضعه رجل مخابرات، يصبح من المنطقى أن يمهد له بعملية من تلك العمليات التى يريد الكشف عنها، بصرف النظر عن محتويات هذا الفصل، والهدف من ورائه... وهو هنا، ليس هدفاً أمنياً فقط، بل يكاد أن يكون نوعاً من التشهير المجوج بالعرب رجالاً ونساء، ممثلين في رجل وزوجته يسعيان - رغم مركز الرجل المرموق، ومكانته العلمية - نحو الغواية سعياً يسهل للآخرين اصطيادهما، حتى تتم العملية

على أكمل وجه كما جاء في هذا الكتاب الغريب!

أقول... قد يكون هذا التمهيد أو هذه المقدمة مقبولة، وإذا ما سارت الفصول التالية على نفس المنوال، بمعنى، أن تعرض لنا عمليات هذا الجهاز الذى يدّعي الرجل أنه يكشف عورته وقسوته ولا إنسانيته!... لكنه في واقع الأمر، يكشف منذ البداية عن هدفه، عندما يقدم لنا في الفصل الأول - الذى يلى التقديم - أو التمهيد - والذى يحمل عنوان «تجنيد»، وهو يحكى فيه نبذة عن حياته، ثم التحاقه بالجيش، ثم بداية تجنيده في «الموساد»، والأماكن التى ذهب اليها، والرجال الذين التقى بهم، والاختبارات التى تعرض لها، والتدريب الذى تلقاه... الى آخر كل تلك الخطوات التى تبدو غريبة، وكأن هناك من يتعهد إفشاء أسرار لغرض في نفسه!

وبعد هذا... تأخذ الفصول مسارها الطبيعى في سرد أو كشف أسلوب العمل في الموساد، وبعض العمليات التى قامت بها، وكلها بالطبع عمليات ناجحة، يتسم بعضها بالقسوة والوحشية التى يدعى الكاتب أنه يشمئز منها، لكنها كلها تتسم بما يمكن أن نسميه التبشير بال «سوبرمان» الإسرائيلى!!

ونجد أنفسنا أمام سؤال يبدو بالغ البساطة:

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا بدأ الكاتب كتابه بعملية «أبو الهول» بالذات، ولماذا - وهذا مهم للغاية - جعل منها تمهيداً؟!

ألم يكن من الطبيعى أن يبدأ كتاب من الفصل الأول الذى

يحمل عنوان «التجنيد»، ثم تأتي هذه العملية ـ عملية أبوالهول ـ في سياق الكتاب، مثلها مثل الفصول الأخرى؟!

ان الأمر يبدو باعثاً على الدهشة حقاً، غير أن دهشتنا سوف تزول اذا ما انتبهنا الى أن الرجل يقدم لنا نفسه منذ السطور الأولى على أنه «صهيونى»... فهو يقول ـ على سبيل المثال ـ إنه ولد في كندا لأب وأم إسرائيليين، ولا يقول يهوديين... ودون أن يتحذلق البعض، فالفرق بين الكلمتين كبير، فاليهودية ديانة أو ربما نقول إنها قومية اذا شاء البعض ذلك، ولكن كلمة «إسرائيلى» لا تشير إلا لمعنى واحد، هو «الجنسية» دون أى شيء آخر!

وهو يؤكد هذا عندما يتحدث عن حرب ١٩٤٨ التى شبت قبل أن يولد بعام، فهو يتحدث عنها على أنها حرب «تحرير الوطن» وليس حرب اغتصاب وطن... ثم، وقبل كل هذا، تلك الكلمة التى وضعها على ظهر الغلاف!

يقول السيد استروفسكى في كلمته هذه:

«لقد كنت فخوراً عندما وقع عليّ الاختيار كي أعمل فى الموساد، وأن أمنح ذلك الامتياز الذي يجعلني واحداً من الصفوة ـ !! ـ غير أني فوجئت بأني أواجه فى الداخل ـ داخل الموساد ـ المبادىء وقد قلبت رأساً علي عقب، والإحساس بالذات ممتزجاً ببرجماتية مقترنة بجشع وشبق وعدم احترام للحياة الإنسانية... وهذا ما دفعني الي كتابة هذا الكتاب، إن

التزام الصمت تجاه هذا الذي يحدث من الموساد، أمر بعيد كل البعد عن حب إسرائيل كدولة حرة... وكان لابد من مواجهة هؤلاء الذين يريدون تحويل الحلم الصهيوني، الي كابوس، !!!

ولابد لنا من التوقف طويلاً أمام هذا التقديم... إنه ـ أولاً ـ يقدم اسرائيل «كحلم»... وهذا حقه دون شك بصفته صهيونياً، لكنه ـ ثانياً ـ يقدم لنا الموساد مثل وحش لا يقهر... ألا يعتبر هذان الأمران في حد ذاتهما هدفاً من أهداف الكتاب والكاتب معاً؟!

على كل... فالكاتب يقودنا في الفصل الأول ـ التجنيد ـ في رحلة غريبة، يحكى فيها تلك الخطوات التى تتبع عند تجنيد إنسان للعمل في جهاز للمخابرات... وفي يقينى، أن مثل هذه الخطوات تبدو متشابهة في كل الأجهزة... فليس رجل المخابرات ـ في أى مكان في الدنيا ـ رجلا عادياً... إنه رجل لابد وأن يتميز بصفات معينة، وقدرات لابد وأن توضع في الاعتبار، وامكانيات خاصة تساعده على القيام بالمهام التى سوف توكل إليه في المستقبل... فلماذا يحكى لنا السيد استروفسكى تلك الخطوات، ولماذا يغرقنا في تفاصيل لن تفيدنا في شىء؟!

لقد ذكرنى هذا الفصل بعملية جاء ذكرها في الفصول السابقة، وهى عملية «غبار التجسس»!

وهى واحدة من معارك أجهزة المخابرات «الاعلامية» التى تفشت في الثمانينات... وإن كانت هذه العملية، تبدو ذات طابع

خاص، إذ إنها نشبت بين أعتى جهازين للمخابرات في العالم، هما الـ «سي. آي. ايه»، والمخابرات السوفيتية التى عرفت باسم «كي. جي. بي»!

ففى عام ١٩٨٦، خرجت الصحف العالمية، كما مررت وكالات الأنباء خبراً بالغ الاثارة، حول اكتشاف الأمريكيين لغبار كان الاتحاد السوفيتى يستعمله لمراقبة موظفي السفارة الأمريكية في موسكو... وأن هذا الغبار يحوى مادة مشعة ترسل نبضات من المكن استقبالها بجهاز معين، بحيث تستطيع المخابرات السوفيتية ملاحقة أى موظف من موظفي السفارة الأمريكية، في ذهابه الى أى مكان دون أن يستطيع الافلات من المراقبة!

الى هنا، وكان الأمر طبيعياً في عالم التجسس، لكن المثير في الأمر... أن الولايات المتحدة زعمت أن هذا الغبار، يسبب أمراضاً خبيثة لمن يعلق بجسده وملابسه، وأن موظفيها في سفارتها بموسكو، قد تعرضوا بالتالى لهذا الاشعاع الذى يسبب تلك الأمراض الشديدة الخطر!

ولما كانت المراقبة والهروب منها فن من فنون التجسس وصل مع تقدم العلوم، ومع الممارسة والتجربة، الى مستوى جعل الصراع يحتدم يوماً بعد يوم في محاولة لاحكام الرقابة على الأشخاص، أو محاولة الافلات من الرقابة مهما بلغت دقتها... فلقد تنوعت الأساليب وتعقدت حتى وصلت الى مستويات رفيعة حقاً... ولقد أخذ الأمر عاماً بعد عام، وربما نستطيع القول يوماً

بعد يوم دون أن نكون مبالغين، شكل سباق بين الأجهزة وبعضها البعض، حتى استطاع الاتحاد السوفيتى الى التوصل ـ في ذلك السباق المثير ـ الى هذا الغبار الذى يجعل الهروب من المراقبة أمراً يكاد أن يكون مستحيلاً!

فما هي حكاية هذا الغبار؟!

هو غبار كأى غبار موجود في الجو، على الأرض أو فوق الحيطان، فهو يتطاير مع أية هبة ريح أو هبوب نسمة هواء... وبطبيعة الحال، فإنه قد يعلق بحذائك وأنت تسير فوق الطريق اذا ما وطأته، أو قد يعلق بملابسك وأنت تغادر مقر عملك، أو سيارتك وهى واقفة في انتظارك،أو حتى وهى تقف في جراج مغلق بعيداً عن العيون... ولهذا الغبار ـ كما قلنا ـ خاصية ارسال نبضات معينة من الممكن استقبالها بجهاز صغير يرشدك ويدلك على الطريق الذى يسلكه الشخص أو السيارة التى علق الغبار به أو بها!

والذى يحدث عادة، أن مثل هذه الأساليب تكتشف بعد فترة من الزمن تطول أو تقصر... ولما كان كل شىء في هذا العالم الغامض يتم بحسابات دقيقة فإن اكتشاف مثل هذا الغبار، لا يدفع الجهاز الذى اكتشفه الى الإعلان عن اكتشافه، وإنما يدفع علماء هذا الجهاز الى ابتكار مادة مضادة تبطل فعالية الغبار... فاذا ما تم هذا، يستطيع من علق الغبار بحذائه أو ملابسه أو سيارته، أو يروغ من المراقبة وأن يهرب منها!

وبالتالى... فلابد وأن تكتشف المخابرات صاحبة الغبار، بعد

فترة، أن غبارها أو جهازها أياً ما كان قد اكتشف وإنه أصبح بلا فعالية، وفي هذه الحالة، لابد وأن تكون جاهزة بمادة جديدة أو شيء جديد يحل محل المادة القديمة، وسرعان ما تستعمل... وفي حالة غبار التجسس هذا، لابد أن السوفييت قد جنوا من وراء اكتشافهم هذا الكثير جداً، وأوقعوا بواسطته بعدد لا بأس به من العملاء... حتى اذا ما اكتشفوا أن الأمريكيين قد عرفوا بأمره وأبطلوا مفعوله، انتقلوا الى الوسيلة الجديدة!

وهكذا، فلابد أن الأمريكيين، عندما أدركوا أن السوفييت قد اكتشفوا أمر اكتشافهم للغبار، أرادوا استغلال الأمر في الحرب الباردة التى كانت، في تلك السنوات، مستعرة بين الشرق والغرب، فأعلنوا الأمر مع ضجة هائلة صاحبت هذا الاعلان في وسائل الاعلام... هاجت الدنيا بالطبع، وانقلبت رأساً على عقب، وفي كل أنحاء الأرض راح الناس يتتبعون الأمر في شغف، ولكى تكتمل اللعبة، استدعى الأمريكيون عدداً من موظفي سفارتهم في موسكو لوضعهم تحت الفحص الطبى في واشنطن... وظلت الصحف تتحدث عن الأمر وتتابعه لأسابيع طالت... حتى اذا استنفذ الأمر أغراضه، هدأت الضجة، وتناسى الجميع أمر غبار التجسس الذى كان الأمريكيون بالطبع يعلمون منذ البداية، كما كان السوفيت واثقين، أنه لا يؤثر على من يعلق بملابسه أو حتى جسده!

... ...

... ...

وهكذا سوف نجد في كتاب السيد استروفسكى، بعضاً من تلك المعلومات التى يضعها وكأنه يضع أسراراً وهى في حقيقة الأمر معروفة، أو ـ على الأقل ـ لم يعد لها قيمة أو لم يعد هناك ضرر من الإعلان عنها، بل ربما كان من المطلوب الإعلان عنها لأن البدائل كانت جاهزة!!

• • •

وإذا كان كتاب الخديعة، أو «الطريق نحو الخداع» يقع في حوالى ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير، فإنه يحوى بالضرورة، من المواد، ما ينطوى على رسائل هامة... وليس شرطاً أن تكون هذه الرسائل موجهة الى جهاز أو دولة أو حكومة، بل ربما كان الهدف الأول، هو القارىء نفسه في جميع أنحاء العالم!

وعلى سبيل المثال... فإن الفصل الذى يحمل عنوان «في أمريكا فقط»، يتحدث السيد استروفسكى فيه عن بعض عمليات التجسس التى تتم في الولايات المتحدة، ولقد بدأ هو الفصل بالحديث عن قضيّة الجاسوس الإسرائيلى «جوناثان بولارد» كما أسلفنا في الفصول السابقة... لكنه أبداً لم يتعرض في بقية الفصل لجواسيس آخرين، وإنما انصب حديثه عن تلك الوحدة البالغة السرية المحدودة العدد والموجودة داخل الموساد والمتخصصة فقط في العمل داخل الولايات المتحدة، غير أنه في فصل آخر يحمل عنوان «بيروت»، يتحدث عن تلك العملية الفدائية التى راح ضحيتها ٢٤١ من مشاة البحرية الأمريكية «المارنيز»...

وهو يقول ان الموساد كان يعلم مقدماً بهذه العملية، لكنه لم يبلغ حلفاءهم الأمريكيين بالأمر، مما أثار الكثير من اللغط حول الأمر، وهو ما كان مطلوباً بالطبع!

فماهي الحكاية بالضبط؟!

يورد الكاتب الأمـريكى «بوب وود وارد» في الفـصل الرابع عشر من كتابه «القناع»، وفي صفحتى ٢٨٥ ـ ٢٨٦ القصة على النحو التالي:

كان ذلك إبان الحرب الأهلية اللبنانية... وكانت أمريكا قد أرسلت قوة من مشاة الأسطول الى بيروت في محاولة منها ومن دول أخرى كفرنسا، لاقرار السلام في العاصمة التى مزقتها الصراعات الطائفية، ويقول وود وارد:

«... ... ... في يوم ١٦ اكتوبر عام ١٩٨٣، أطلقت النار على سادس رجل من مشاة البحرية الأمريكية في لبنان، وأنه قتل، وكان أن وجه أحد الصحفيين سؤالاً الى الرئيس ريجان عن سبب وجود ١٢٠٠ من رجال البحرية الأمريكية في لبنان، فقال ريجان في لهجة قوية:

«لأنى أعتقد أن وجودهم من أشد الأمور أهمية لحماية مصالح وأمن الولايات المتحدة والعالم الغربى بشكل عام!»

وبعد ستة أيام، وبالتحديد في ٢٣ أكتوبر، وكان اليوم يوم أحد، وفي الساعة السادسة واثنتين وعشرين دقيقة بتوقيت بيروت، تقدمت سيارة نقل صفراء اللون من مركز قيادة مشاة

البحرية في بيروت، وما لبثت هذه السيارة أن انفجرت، وكانت تحمل ١٢ ألف رطل من مادة «تي. إن. تي» الشديدة الانفجار، وقتلت على الفور ٢٤١ من العسكريين الأمريكيين!».

ويضيف وود وارد بعد هذا: «كان موت هذا العدد الكبير من العسكريين الأمريكيين صدمة شديدة وعاطفية ووطنية للإدارة - أى إدارة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، فما كان من كاسى - مدير الـ «سى. أى. ايه» وقتها - إلا أن طلب من الموساد، والمخابرات العسكرية الإسرائيلية تحقيق الأمر... ولقد ركز القسم السرى رقم ٤٠ وهو متخصص في عمليات المخابرات الخاصة بالارهاب على هذا الأمر!

هذا ما قاله وود وارد الوثيق الصلة بالإدارة الأمريكية... ومن حديثه، تتضح طبيعة العلاقة بين المخابرات الأمريكية والإسرائيلية، وكيف أن كاسى «طلب» من الموساد أن تحقق هذا الأمر، وكأنها جزء من تشكيل الإدارة التى يشرف عليها!

فما الذى قاله استروفسكى حول نفس الموضوع؟!

في صفحة ٣٢١ من كتابه يقول:

«في صيف عام ١٩٨٣، بلغ أحد عملاء الموساد في بيروت، عن سيارة نقل مرسيدس يجرى اضافة مخازن سرية فيها من قبل الشيعة المسلمين، بحيث من الممكن أن تحمل في هذه الفراغات المضافة قنابل أو مواد متفجرة، ولأن المساحات المضافة تبدو أكبر من المعتاد، فإنه يعتقد أن ثمة عملية تفجير آتية في

الطريق!»

وكانت الاحتمالات التي وضعت في بيروت من قبل رجال الموساد فيها، أن هناك عدداً من الأماكن من الممكن أن تكون هدفاً للتفجير المحتمل... من بينها المبنى السكني لمشاة البحرية الأمريكية، وكان السؤال المطروح على الرجل: هل نبلغ الأمريكيون بالأمر أم لا؟!

كان الأمر خطيراً، وعلاقة اسرائيل بالولايات المتحدة ليست في حاجة الى مناقشة... وعلى هذا، فلقد كان القرار أكبر من أن يتخذ في بيروت، وكان لابد من إحالة الأمر الى القاعدة في الموساد... وكان الأمر الشديد الغرابة، هو أنهم في الموساد، اتخذوا قراراً بأن يرسلوا الى الأمريكيين تحذيراً عادياً، وإلا يزيد التحذير عن ملاحظة عابرة تقول: أن لديهم أسباباً للقول بأن شخصاً ما يدبر لعملية ضدهم!!!

ويقول استروفسكي، أن هذا التحذير بلغ في عموميته، وكأن أحداً يرسل تقريراً عن حالة الطقس، مما يستبعد معه اتخاذ أية احتياطات تمنع مثل هذا الأمر... فلقد كان عادياً للغاية، وسط المذابح التي كانت تتم بين اللبنانيين وبعضهم البعض، أن يرد مثل هذا التحذير... ثم هو يضيف أن مسئولاً على مستوى عال في الموساد، قال ان اسمه «ادموني»، قد قال عندما نبه البعض الى خطورة الموقف:

«لسنا هنا لحماية الأمريكيين!!»

وفي نفس الوقت، تلقت كل المنشآت والوحدات الإسرائيلية تحذيراً من هذه السيارة بكل أوصافها!!. ثم يضيف بدقة غريبة كيف اقتحم اللورى الموقع، وكيف حطم البوابة ثم اجتاح نقطة الحراسة بأكياس الرمال المحيطة بها... حتى اذا وصل الى المكان المحدد للانفجار، انفجرت السيارة كى تحيل المكان الى كومة من الأنقاض!!

وبعد ذلك بدقائق، كان هناك لورى آخر يقتحم مقر قيادة رجال المظلات الفرنسيين في منطقة بئر حسن، وهى منطقة سكنية، وانفجرت السيارة بقوة ألقت بالبناء كله مسافة ٢٠ قدماً. وقتلت ٥٨ جندياً فرنسياً.

المذهل في الأمر، أن استروفسكى يقرر أن موجة من الارتياح اجتاحت رجال الموساد بعد هذه العملية، أنها لم تكن موجهة الى الجنود الإسرائيليين!!... ليس هذا فقط، بل هو يقرر في معرض حديثه عن هذا الموضوع، أن أحدهم صاح فيه ـ وكان قد احتج على عدم تحذير الأمريكيين تحذيراً كافياً ـ بقوله:

«اخرس... أنت تتحدث لأنك مرتبط بهم، إننا نقدم للأمريكيين أكثر بكثير مما يقدمون لنا!!»

• • •

ولا يستطيع الإنسان عند هذا الحد، إلا أن يتوقف مفكراً في الأمر كله... وهو في النهاية، سوف يجد نفسه أمام عدد لا بأس به من الأسئلة.

ماذا كان رد فعل الأمريكيين تجاه هذا الذى قيل؟!

ألم يتحركوا؟!

ألم يوجهوا احتجاجاً الى الحكومة الإسرائيلية؟!

ألم يكن هناك - حتى - مجرد عتاب؟!

لقد صدر الكتاب وقيل إنه باع حوالى نصف مليون نسخة، ورغم هذا لم نسمع أن العلاقة بين الدولتين قد تأثرت قليلاً أو كثيراً!!

غير أننا لابد وأن ننتزع أنفسنا وعقولنا من هذه التساؤلات التى أرى أنها بعيدة عما يجب أن نفكر فيه، وما يجب بالتالى أن نتساءل عنه... ذلك أن المعنى الوحيد الذى سيترسب في نفس أى قارىء لهذا الكتاب، هو أنه اذا كانت إسرائيل تستطيع أن تفعل كل هذا بالولايات المتحدة التى تمدها بكل شىء وتعينها بملايين الملايين من الدولارات، دون أن تخشى إسرائيل لوماً أو عتاباً أو عقاباً... ألا تستطيع إذن، أن تفعل هذا، بل أكثر منه، مع الآخرين؟!

أليس هذا - في حد ذاته - يصلح هدفاً لكتاب سوف يجنى صاحبه أرباحاً ولن يخسر شيئاً؟!

إن الوصول الى المعنى الكامن في قلب هذا الكتاب، سوف يقودنا الى الغرض الذى من أجله كُتب وطبع ونشر وأثيرت من حوله تلك الضجة التى ماتت في المهد...

ثم يبقى أن نعود الى البداية... إلى المقدمة أو التمهيد.... الى عملية «أبوالهول»

أى اغتيال المشد!

ثم تدمير المفاعل النووى العراقى!

حيث نرى كيف يطبخ السم؟!!

أكاذيب السيد ستروفسكي

لأن عالم الذرة العراقى «بطرس بن حليم»، كان في مهمة بالغة السرية، لمتابعة شحنة اليورانيوم المطلوبة للمفاعل النووى العراقى... ولأن المخابرات العراقية كانت قد نبهت عليه ـ وهذا أمر طبيعى تماماً ـ ألا يتصل بأحد أو يتحدث مع مخلوق ـ حتى زوجته ـ حول طبيعة مهمته السرية تلك، وبالرغم من أن مكان عمل الرجل كان يقع في أقصى شمال المدينة... إلا أن عاصمة النور هذه بكل اتساعها، ضاقت به، فاختار أن يسكن هو وزوجته سميرة في مكان آمن... ولم يجد صاحبنا حياً باريسياً أكثر أمناً وسلاماً من «حى اليهود» الذى يقع في أقصى جنوب المدينة!!!

كان عليه، في كل يوم، أن يخترق باريس من الجنوب الى الشمال مرة كل صباح، وأن يعود فيخترقها مرة أخرى من الشمال الى الجنوب مرة كل مساء كى يعود الى مسكنه، وهو، لكى يفعل هذا، لم يكن أمامه سوى أن يستقل الأتوبيس الذى يمر

بالحى حتى محطة «سان لازار» للمترو... كى يستقل منها قطاراً يحمله الى «سارسيل» حيث يقوم المصنع الذى يعمل به!

ليس في الأمر خطأ في الترجمة، وليس فيه أيضاً مبالغة أو سخرية نتعمدها... ان هذا بالضبط هو ما ذكره السيد «فيكتور استروفسكى» في كتابه، بل... في السطور الأولى من هذا الكتاب!

ان أى قارىء، مهما تدنت درجة ثقافته، يقرأ مثل هذا الكلام... سوف يدرك على الفور، أن السيد «بطرس بن حليم»، بالرغم من أنه عالم نووى، المفروض أنه يتمتع بقدر لا بأس به من الحصافة والحرص والفهم والادراك لما يحيط به من أخطار، يتمتع بنوع نادر من الغباء والغفلة!!

فهل هذا ما يريد منا المؤلف أن نفهمه؟!

وعلى كل... فعلينا أن نتغاضى عن مثل هذه الأمور البسيطة التى من المطلوب أن تترسب في وجدان القارىء الغربى بوجه عام... وتؤثر - للأسف على الوجدان العربى الذى يسارع الى ترجمة مثل هذه الكتب وطرحها في الأسواق دون تنبيه أو تعليق، بوجه خاص!

واذا كان لكل شىء سبب، فإن لمثل هذه التركيبة الرديئة عند السيد استروفسكى سبب، هو... أن محطة الأتوبيس في حى اليهود، يمر بها خطان فقط... واحد محلى ينقل ركابه الى أحياء المدينة المختلفة، والآخر ينقل ركابه الى خارج المدينة... وبطبيعة

الحال فلقد كان بطرس بن حليم يستقل الخط المحلى في موعد ثابت من كل يوم من تلك المحطة التى لم تكن تحظى بكثير من الركاب!

ولقد كان من الطبيعى أن تلفت نظره، تلك الفتاة الشقراء الشديدة الجمال، ذات العينين الزرقاوين، والشعر الذهبى، والتى - دائماً - ما ترتدى بنطلوناً بالغ الضيق، يلتصق بجسدها مبرزاً مفاتنها التى يسيل لها لعاب من كان مثل بطرس بن حليم... ولأن الوقت كان صيفاً، في شهر أغسطس بالتحديد، فإن البلوزة التى كانت ترتديها تلك الفتاة، كانت تكشف عن كتفين من المرمر، وصدر يضارع صدر الممثلة الأمريكية الراحلة «جين راسل»!

كان طبيعياً إذن أن تلفت الفتاة نظر الرجل القادم من العالم الثالث، وأن تشغل باله كأى عربى يغريه اللحم الأبيض... ولقد كانت الفتاة تأتى كل يوم في نفس الموعد، كى تقف في انتظار الأتوبيس، لكنها أبداً لا تستقله... ذلك أن شيئاً غريباً كان دائماً ما يحدث، فقبل وصول الاتوبيس بدقيقة أو دقيقتين، كانت تصل الى المحطة، سيارة «الفاروميو» باهظة الثمن، يقودها شاب أشقر وسيم، كى تقف أمام الفتاة، فتترك هذه مكانها من المحطة، وتستقل السيارة التى تنطلق بها مختفية عن الأنظار!

استمر الأمرعلى هذا الحال فترة، حتى تعود السيد بطرس بن حليم على رؤية الفتاة كل يوم... بل كان، بإيحاءات معينة من الكاتب، ينتظر رؤيتها كى يملأ من جمالها عينيه، ولابد أنه -

أيضاً ـ كان، في كل يوم، يتمنى أن تخلف السيارة موعدها، وأن تستقل الفتاة الأتوبيس معه!

ولقد حدث ما تمناه بطرس بن حليم، مع فارق بسيط!

ذلك أن الأتوبيس الداخلي تأخر ذات يوم لحادث عارض، ووصل قبله الأتوبيس الآخر، وتلفتت الفتاة يمنة ويسرة، ولما لم تجد السيارة، هزت كتفيها كمن لا يعنيه الأمر، واستقلت الاتوبيس الذى حملها ومضى... وماهى إلا دقائق قليلة، وقبل أن يصل اتوبيس الخط الداخلي، حتى هلت السيارة «الالفاروميو»، وأطل الشاب الأشقر من نافذة السيارة بحثاً عن الفتاة... فما كان من عالم الذرة العربى، إلاّ أن تطفل على الآخرين، فتطوع، رغم التنبيهات والتحذيرات، بابلاغ الرجل ـ باللغة الفرنسية ـ ان الفتاة استقلت الأتوبيس الآخر... ورد عليه الشاب الوسيم بالانجليزية... وكان لابد وأن يدور بين الاثنين حوار انتهى بأن عرض الشاب على العالم العربى أن يوصله الى حيث يريد... وهكذا، قبل الرجل الأمر، وسرعان ما استقل السيارة الى جوار رجل غريب، لا يعرف عنه شيئاً، ولم يلتق به من قبل، ولا يعرف الى أين من الممكن أن يقوده...

وهكذا ـ كما قال استروفسكى في كتابه ـ التهم السيد بطرس ابن‌حليم، عالم الذرة العراقى، الطعم الذى ألقته اليه «الموساد»، ووقع في الشرك!!

وبصرف النظر عما سوف يتلو ذلك من أحداث، فإن أى

قارئ»، في أى مكان في العالم، سوف ينظر الى أمثال السيد بطرس بن حليم هذا، نظرته الى إنسان متهافت، ليس لديه أدنى قدر من الحرص أو الإحساس بالأمن أو حتى فهم الواجبات الواقعة على عاتقه... كما أنه لا يتمتع بأى قدر من التحضر، إذ يتطوع بخدمات لم يطلبها منه الآخرون، بل... ورغم حساسية مهمته وخطورتها في تلك المدينة الغربية التى - لابد أنه يعلم - يتربص به فيها المتربصون، فهو يقبل دعوة أى عابر سبيل فيركب معه السيارة ببساطة أبله غير مدرك لشىء!

وعلى كل فإن الرجل الذى ثار على جهازه وتطوع أن يفضح أساليبه - !! - يقدم لنا سائق السيارة الغالية الثمن، على أن اسمه «ران اس»، لكنه قدم نفسه لبطرس بن حليم على أن اسمه «جاك دونافان» وأنه رجل أعمال بريطانى الجنسية... ثم، وبدون مناسبة، يعرج استروفسكى على أسلوب الموساد في تجنيد العملاء، وعدد الشقق التى يمتلكها في باريس ولندن، وتلك التى يستأجرها - وهى بالعشرات - لأغراض أو أخرى، وكيفية السيطرة على الفتيات وأساليب استخدامهن... و... وهو في كل هذا، إنما يبث في نفس قارئه نوعاً من الرهبة من هذا الجهاز المخيف الذى لا يقهر، وإن كان كل ما قاله لا يتعدى أن يكون روتيناً تتبعه أجهزة المخابرات في العواصم الهامة مثل باريس!

ثم...

ثم هو - وقبل أن يحكى كيف سيطر دونافان بالمال والجنس،

على بطرس بن حليم - كان لابد له أن يكمل الصـورة - أمن أجل هذا صدر الكتاب؟! - ويعطينا الوجه الآخر للإنسان العربي!!

فالسيدة سميرة - زوجة عالم الذرة بطرس بن حليم - المتذمرة من حياتها ووحدتها في عاصمة النور، المقيمة في شقة بحي اليهود، تفاجأ بمن يدق عليها الباب... وعندما فتحت، طالعتها فتاة متوسطة الجمال، رقيقة الحديث... وكانت الفتاة - هكذا قال استروفسكي - قد دقت أبواب الشقق الأخرى في البناية قبل أن تصل الى شقة سميرة وحتى يبدو تصرفها طبيعياً تماماً، تبيع أنواعاً من العطور والمساحيق الغالية بأثمان رخيصة، كي تربح من المال ما يمكن أن يساعدها على إتمام دراستها الجامعية!

ولأن العرب قوم عاطفيون، أو غافلون ومتهافتون فلقد رحبت سميرة بالفتاة، ولم تكتف بتشجيعها بشراء بعض ما تعرضه، رغبة في مساعدتها أو طمعاً في توفير بضعة فرنكات، بل دعتها الى دخول الشقة!!

ولسوف يبدو لنا الأمر كأنه نوع من التأليف السخيف، أو... أو الاهانة المتعمدة، عندما يحكي لنا السيد استروفسكي كيف أن سميرة راحت تشكو للفتاة - التي كانت تراها لأول مرة - همها وزوجها وحياتها الكئيبة ولون شعرها الحائل، ورغبتها في شراء عدد لا بأس به من زجاجات العطر لتقدمها كهدايا لأهلها وصديقاتها في العراق، التي سوف تطير اليها بعد خمسة عشر يوماً!!

هكذا يقدم لنا المؤلف المرأة العربية، حتى ولو كانت زوجة رجل له مكانته ومركزه المرموق في المجتمع، وأهميته بالنسبة لوطنه... ذلك أن سميرة تقدم لجاكلين - عميلة الموساد - كل ما جاءت لكى تعرفه دون أن تكلف هذه نفسها عناء السؤال... إنها تمهد لها الطريق في بلاهة وتخلف يبعثان على الاشفاق... وبطبيعة الحال، فإن جاكلين تصحبها الى «الكوافير»، كى تصبغ لها شعرها وتجمّل لها أظافرها... و... ولا تكتفي الطالبة الفقيرة بتقديم كل هذه الخدمات، بل هى تقدم لسميرة سلسلة أنيقة للمفاتيح، وتطلب منها مفاتيحها كى تضعها في السلسلة الجديدة بنفسها، ثم تأخذ بصمة مفتاح الشقة في غفلة منها - وهل كانت في حاجة الى ذلك كى تفتح المسكن؟!! - وعن طريق هذه البصمة، تصنع الموساد مفتاحاً للشقة، كى يدخلها الرجال في غيبة الزوجة التى اسقطت نفسها في حبائل جاكلين، وفي غيبة الزوج الذى كان يستجيب لدعوات دونافان الى الملاهى الليلية والمطاعم الفاخرة والنساء الجميلات... ثم يزرعون في جميع أنحاء الشقة، عدداً لا بأس به من الميكروفونات كى يستمعوا الى كل ما يدور بين الرجل وزوجته حتى في غرفة النوم!!

وبدون الدخول في التفاصيل، كان أهم ما حملته الميكروفونات إلى أسماع الإسرائيليين، هو قرب وصول عالم الذرة المصرى، الذى يعمل في المشروع العراقى، دكتور يحيى المشد!

... ...

... ...

بعد اسبوعين سافرت سميرة الى العراق، بعد أن أصبح بطرس بن حليم، مثل كتاب مفتوح أمام الإسرائيليين، كما أصبح أسير دونافان الذى بدأ معه مشوار تجنيد دفعه فيه ـ في النهاية ـ الى الاعتراف بمهمته، وتزويدهم بكل ما كانوا في حاجة اليه من معلومات.

ومهما كان الأمر، فان الذى يعنينا هنا، أنه قدم له فتاة تدعى «مارى كلود ماجال»، وهى فتاة ليل فرنسية تتعامل مع رجال الموساد، وتقوم بكل المهام المطلوبة منها دون أن تسأل أو تستفسر مادامت تقبض الثمن... ويأخذنا استروفسكى الى مسالك ودروب تمتد من فرنسا الى ألمانيا، ومن تورط الى تورط، حتى يصل الأمر به، الى التعاون مع مجموعة من رجال الأعمال الألمان، يتبرع حليم بإعطائهم كافة المعلومات المطلوبة عن مهمته نظير بضعة آلاف من الدولارات، وبضع سهرات حمراء التقى فيها بحسان من المانيا وفرنسا خلبن بالطبع لبه!!

غير أن بطرس بن حليم، بعد عودته من ألمانيا، يسقط فيما يمكن أن نطلق عليه «صحوة ضمير»، ولا يجد من يستنجد به سوى صديقه دونافان، الذى تبلغ غبطته الآن ذروتها... فيقوم بالخدمة، وينبىء بطرس أن الألمان لم يكونوا عملاء للموساد، بل هم أمريكيون وإن عليه بالتالى ألا يخشى شيئاً... وبينما هو يحاول تهدئة الرجل الذى كانت أعصابه الآن تتفتت، يفضى إليه هذا بأن ما يقلقه حقاً، هو قرب وصول عالم الذرة المصرى يحيى المشد، الذى يعمل في مشروع المفاعل النووى العراقى!

ويصر دونافان على أن يقدمه بطرس بن حليم الى يحيى المشد على أن يبدو الأمر لهذا الأخير، وكأنه حدث مصادفة... وكان طبيعياً أن يدعو بطرس زميله المشد الى العشاء بعد وصوله... وبينما هما يتناولان العشاء، يأتي دونافان، لكنه يجد في المشد نوعاً آخر من الرجال، فهو لا يتحدث في شيء، ولا يبوح بشيء، ولا يثرثر، ولا يجيب على الأسئلة، أية أسئلة، بل يصل به الأمر الى الاستئذان والنهوض منصرفاً!

بعد أن ينتهي المشد من مهمته، وقد اختلف مع الفرنسيين الذين كانوا راغبين في اعطاء العراق نوعاً آخر من اليورانيوم غير ذاك المخصب الذى تم الاتفاق عليه، يعود الى العراق... ومرة أخرى يأخذنا استروفسكى الى مغامرة أخرى، إذ يدمر الاسرائيليون المفاعل في فرنسا... ويجن جنون بطرس، إذ يدرك إنه كان السبب في تدمير المفاعل، ويعترف لزوجته بأنه باح للأمريكيين بأسرار عمله، وتثور هى عليه، وإن كانت لم تمانع في قبول دعوته للعشاء في أفخر مطاعم باريس، وارتياد الملاهى، ومساعدته في انفاق الدولارات، والتمتع بمباهج الحياة!!

غير أن ضغط الضمير يدفع بطرس الى الاصرار على العودة الى العراق، رغم يقينه من أنهم «سيشنقونه!!»... ويعود بطرس الى بغداد، بينما يضطر يحيى المشد الى العودة الى باريس لمعاينة اليورانيوم المطلوب.

وهنا... رغم الصفحات القليلة جداً التى كتبت عن المشد، لابد

لنا من التوقف أمام أسلوب استروفسكى في تقديمه... فهو بداية يقول:

«... ... ... كانت الموساد تعلم إنه متورط في علاقات جنسية - تاني!! - وأن غانية اسمها مارى اكسبريس - سوف نعرف بعد سطور قليلة أنها هى هى مارى كلود ما جال التى قدمها من قبل الى بطرس بن حليم - كانت على علاقة «منتظمة» به!!»

ويقول:

«كانت الموساد تعلم أنه عنيد وليس من السهل أن يخدعه أحد!»

ولما كان بقاء المشد في باريس محدوداً بمهمة معينة. فإن القرار اتخذ في الموساد:

«إذا وافق على التعاون معنا استخدمناه... وإن لم يوافق قتلناه!»

هكذا ببساطة، واختصار يورد استروفسكى الأمر، بل هو يضيف، أن قرار «الإعدام» - !!! - يصدر عادة عن نظام داخلى في الموساد يعد قائمة بالمطلوب إعدامهم وكان المشد واحداً منهم!

لكنهم قبل اغتياله، أرسلوا له رسولاً دق عليه باب الغرفة، ورفض المشد استقباله، بل أبقى باب غرفته بفندق الميريديان في باريس مغلقاً بالسلسلة، ولما سأله المشد عما يريد، قال الرجل إنه مرسل من قوم يطلبون التعاون معه، وإنهم يدفعون بسخاء - وهذا

ما يطلق عليه في عالم الجاسوسية «الاتصال البارد» ـ فما كان من المشد إلا أن نهره قائلاً:

«أغرب عن وجهى أيها الكلب وإلا أبلغت الشرطة!»

ثم أغلق الباب!

ويضيف استروفسكى، أن مارى اكسبريس جاءته، ومكثت معه وقتاً لا بأس به، حتى اذا غادرته، استغرق في النوم... وبعد ساعتين، فتح رجلان باب الغرفة بمفتاح خاص ـ نسى استروفسكى هنا حكاية السلسلة التى يغلق الرجل بها باب الغرفة كلما كان وحيداً ـ ودخلا الغرفة وذبحاه!

وعندما عرفت مارى اكسبريس ـ التى هى مارى ما جال ـ باغتيال المشد، أصيبت بالذعر، وأبلغت الشرطة... فما كان من الموساد، إلا أن اغتالتها في حادث سيارة في أحد شوارع باريس!

• • •

وإننا لا نملك بعد قراءة هذا الفصل الذى ينتهى بوصف دقيق وحماسى لاقلاع الطائرات الإسرائيلية في طريقها الى تدمير المفاعل العراقى ـ إن كنت من هواة تشغيل المخ ـ إلا أن تشعر بالغيظ... لا من أمثال فيكتور استروفسكى، فكل هذا التهافت الذى ورد في كتابه، ينهار أمام أية نظرة فاحصة، بل سينصب غيظك حتماً على أن هناك، أمام مثل هذا الكتاب، نوع غريب من

الصمت في عالمنا العربي، وتجاهل مريب لتفنيد مثل هذه الأكاذيب وكشف خطورتها!

غير أن المشد ـ رغم اغتياله ـ كان حسن الحظ... فلقد أوجعت الجريمة كاتباً مصرياً هو الأستاذ «عادل حمودة»، آل على نفسه أن يبحث، ويستقصى، ويسأل، ويدرس، ويقارن، ويسافر متنقلا من عاصمة الى عاصمة، كى يجمع الحقائق التى تتوافر في الخارج ـ بكل أسف ـ أكثر مما تتوافر في الداخل... وهو ـ ربما لهذا ـ يوجعك وأنت تقرأ كتابه «الموساد واغتيال المشد»، رغبة منه في مشاركتك إياه للوجع والألم، فهو ـ مثلا ـ يقول:

«... ... ... إن جهد الحصول على المعلومات في الخارج، يتضاءل ـ مهما كان ـ أمام جهد تنقيتها من شوائب مغرضة، مقصود أن تصل إلينا ـ على هذا النحو ـ كى تعلق بأذهاننا ولا تتركها!!»

غير أن المذهل في الأمر... أنك وسط هذا اللغو الذى جاء في كتاب استروفسكى... وكل ما جاء في كتاب عادل حمودة من حقائق محققة ومدعمة بالأسانيد، سوف تتساءل:

أين كانت المخابرات العراقية والرجل كان يعمل لحساب العراق وفي مشروع بالغ السرية والخطر من مشاريعها؟!

وأنت لن تجد جواباً، بل صمت مطبق مطلق، ولذلك، يقول عادل حمودة في حاشية من كتابه:

«يلفت النظر أن الدكتور يحيى المشد ذهب الى حتفه عارياً

مكشوفاً من أية تغطية من تلك التي تحدث في مثل هذه الحالة!!»

غير أني أرى أن ما يجب أن يهمنا هنا، ليس هو اغتيال المشد من عدمه، فالاغتيال وقع، وهو حقيقة قامت بها الموساد... لكن الذي يجب أن يعنينا، هو هذه المحاولة المستميتة، من السيد فيكتور استروفسكي الذي يدعي وقوفه في وجه الموساد وأساليبه، لتشويه الإنسان العربي!

وهو... عندما قال إن المشد كان على علاقة بماري كلود ماجال أو ماري اكسبريس، كان يكذب، وكان يعرف أنه يكذب... ذلك أننا اذا عدنا الى كتاب عادل حمودة، سنجده يقول كنتيجة لتحقيقه الذي أجراه في فندق الميريديان في باريس... إن الدكتور يحيى المشد عندما هم بالدخول الى المصعد، سبقته إليه ماري اكسبريس، وإنها أثناء وجودها معه حاولت أن تتحدث إليه، وأن تغريه: «لا تتردد... فلن تندم!»... لكن الرجل لم يستجب، بل لم يرد... حتى عندما قالت له: «لا تشعرني بالاهانة!»، صمم على موقفه... وعندما ضغطت عليه بإغلاق باب المصعد عندما وصل الى الدور التاسع حيث كانت غرفته، ثار عليها وهددها وعاد بالمصعد مرة أخرى الى حيث كان يقيم، وكانت هي معه، تلاحقه... لكنها لم تدخل غرفته لأنه لم يسمح لها بهذا!

وعادل حمودة في كل هذا لم يكن يضرب الودع أو يستشف ما حدث حماساً منه للعالم الجليل الذي ضاع نتيجة الجهل والاهمال، بل إنه نقل محاضر البوليس الفرنسي... إذ قالت

السيدة مارى كلود ماجال، بعد أن ذهبت الى الشرطة لتدلى بأقوالها وتبرىء نفسها:

«إننى لم أذهب الى غرفته!»

«لماذا؟!»

«لأنه لم يستجب لى!»

«ألم تكتمل المحاولة؟!»

«كلا... وقد دخل الى غرفته وحده!!»

لقد كان هذا الاعتراف سبباً في اغتيالها!!

• • •

ويبقى سؤال نردده، بوجع وألم، سؤال يتردد صارخاً في الوجدان:

«أين كانت المخابرات العراقية عندما قتلوا المشد؟!»

وهو سؤال يحتاج الى قراءة متأنية، لكتاب عادل حموده!!

المراجع

١ ـ مصر القديمة ـ دكتور سليم حسن

٢ ـ التوراة

٣ ـ سيجموند فرويد ـ شفيق مقار

٤ ـ دراسة سياسية للتوراة ـ شفيق مقارالفهرس

٥ ـ السحر في التوراة ـ شفيق مقار

٦ ـ مباراة الثعالب ـ لاديسلاس فاراجو

٧ ـ تحرق بعد قراءتها ـ لاديسلاس فاراجو

٨ ـ الخدمة السرية لإسرائيل ـ ريتشارد دي كون

٩ ـ القط والفئران ـ ليونارد موزلي

١٠ ـ إعصار من الشرق ـ د. ثروت عكاشة

١١ ـ أفيقوا يرحمكم الله ـ راجي عنايت

١٢ ـ مذكرات حكمت فهمي ـ إعداد: حسين عيد

١٣ ـ اليهودي العالمي ـ هنري فورد

١٤ ـ بنات السيدة راشيل. . . (ترجمة د. سهام منصور) ـ ناتالي رين

١٥ ـ الجمعيات السرية في العالم ـ د. عبد الوهاب المسيري

١٦ ـ الخديعة ـ فيكتور استروفسكي

١٧ ـ بروتوكولات حكماء صهيون ـ ترجمة ودراسة: عجاج نويهض

١٨ ـ اليهود ـ زهدي الفاتح

١٩ ـ الموساد ـ دينيس إيزينبرج ـ يوري دان ـ إيلي لانداد

٢٠ ـ مساحة للكذب ـ وولف بليتشر

الفهرس